الفصل الأول

أسس المعتقدات الدينية

---

١ . الأفكار الحاضرة فى تكوين الأديان — ٢ . العناصر الدينية والعاطفية فى المعتقدات الدينية — ٣ . العناصر العقلية فى المعتقدات الدينية — ٤ . العناصر الجمعية فى المعتقدات الدينية — ٥ . شأن الشعائر والرموز فى تكوين المعتقدات الدينية — ٦ . تشابه المعتقدات الدينية فى جميع الأمم .

---

١ — الأفكارُ الحاضرة فى تكوين الأديان

ازدرى العلمُ تحليلَ الأديان زمناً طويلاً مع أن تاريخ البشرية يظلُّ غيرَ مفهوم بغير تاريخ آلهتها .

ومنذ عهد قريب ، فقط ، أخذ العلماء يُعْنَوْن بذلك التحليل ، غير أن ما طبّقوه من الشرح والتفسير لم يُسْفِر عن سوى نتائجَ هزيلة .

ولا يزال الاطلاع على تكوين الأديان ناقصاً لِما كان من القول بإمكان درسها اعتماداً على النصوص كما تُدْرَس الحوادث التاريخية الأخرى ، مع أن الواقع هو أن الأديان المُزَاوَلة هى غير الأديان التى تُعَلَّم فى الكتب ، وسنرى فى فصل آخر أن الدين المُنْتَحَل لا يَلْبَث أن يتحول وإن ظَلَّتْ نصوصُه ثابتة لا تتغير .

إذَنْ ، لا يكون لدينا سوى علم قليل بالأديان إذا ما اقتصرنا على تَبَيُّنِها من الكتب ، وبالمعابد والتماثيل والنقوش والصُّوَر والأقاصيص نَعْرِف الوجه الذى يفهمها به أتباعها خيراً مما نَعْرِفه بالكتب .

ولا يبالى الكُتَّاب الذين يبحثون فى الديانات بتَحَوُّل هذه الديانات ، فتُبصِر انتحالَهم لنظرياتٍ مناقضة لكلِّ ملاحظة .

ومن ذلك أنك تجد أساتذةً علماء يَعُدُّون البُدَّهِيَّة (البوذية) ديانةً بلا إله ، مع أنها أكثر الأديان آلهةً على ما يحتمل ، وعلى ما كان من مجادلة مؤسس هذه الديانة فى وجود الآلهة تصادَم هو وهذه الآلهة عند ما سَبَح فى تأمُّلاته تحت شجرة الحكمة فقاوم وعيد أمير العفاريت مارًا وناهَضَ إغواءَ بنات الآلهة أپْسَرَا ، فمن يَقُل بوجود دين بلا إله يقترفْ خطأً نفسيًّا جَمْعِيًّا أساسيًّا .

وما يدور حول تكوين الأديان من الفرضيات كثيرُ التغيُّر ، وظلَّت الفرضية اللغوية أكثرَ تلك الفرضياتِ شيوعاً حيناً من الزمن ، وتقول هذه الفرضية إن حوادث الطبيعة ، كالشمس والقمر والنار الخ ، كانت أشياءَ مُشَخَّصَةً ، وذلك لِما كان من عَدِّ التعابير المجازيَّة التى تدلُّ عليها أموراً حقيقية ، ومن ذلك أن كانت أُسْطُورَةُ الإلاهَة سِيلِينِه التى عانقت إنْدِيمْيُون فى غار لاتْمُوسَ إشارةً إلى القمر وهو يداعب بأشعته الأمواجَ التى تَغيب بينها الشمسُ .

ومن العبث أن نَقِفَ عند هذه النظرية المتروكة تماماً فى الوقت الحاضر ، ولا تلوح النظرياتُ التى حَلَّت محلَّها أمتَن منها مع ذلك .

إن ما أتَى به علم وصف الإنسان من المباحث ، عن طُوطَمِيَّة الحُمْرِ (اليُورُوج) لإيضاح الضَّحِيَّة ، وعن طَبُوِيَّة البُولِينِيزِيين لإيضاح ما فى الحياة الاجتماعية من

وَسْوَاسٍ ومحظور ، يُلْقِى ، بالحقيقة ، نوراً ضئيلاً على المسائل الدينية ولاسيما الأساطيرُ اليونانية ، وإن قوانين الأمم المتمدنة ، حتى العاداتِ الاجتماعيةَ البسيطة ، التى لا أَصْلَ دينيَّ لها ، مملوءةٌ بالمُحَرَّمات المشابهـة لِما فى طَبْوِيَّةِ الزُّمَرِ الفطرية ، وإن ما فى طَبْوِيَّة من هم على الفطرة من طابعٍ مقدس ناشىء عن أن جميع شؤون الحياة المادية عند هؤلاء ، ومنها مآكِلهم ، ذاتُ مَسْحَة دينية .

ومن النظريات ذاتِ الحُظْوة الكبيرة فى الوقت الحاضر تلك النظريةُ التى تقوم على عَدِّ الأديان حوادثَ جَمْعِيَّةً غايتُها بعضُ الواجبات التى أصبحت مقدسة ، ومن الواضح أن جميع الأديان تكتسب صفةً جَمْعِيَّة ذاتَ حين فتستلزم بعضَ الواجبات بحكم الضرورة ، غير أن من الصعب أن يُجادَل فى أن الأديان كانت إبداعاً فرديًّا فى بدء الأمر ، وأظهرُ ما تبدو هاتان الظاهرتان المتعاقبتان ، الفرديةُ ثم الجَمْعِيَّة ، فى الأديان التى مَثَّلَت أعظمَ دَوْر : فى دين بُدَّهَـة (بوذا) ودين محمد على الخصوص .

ويتجلى عيب النظريات الحاضرة حول تَوَلد الأديان فى بحثها عن عِلَّة واحدة للأديان مع تعددها ، ثم فى استخفافها بالعوامل النفسية مع أن هذه العواملَ عناصرُ جوهريةٌ فى تكوين الأديان .

وتؤدى معرفة هذه العوامل إلى إيضاح أصول الحوادث الدينية التى تبدو فى البشر من خلال التاريخ ، وهى تُسَوِّغ قولَنا بالقرابة الوثيقة بين جميع الأديان .

وتظلُّ أهرام مصرَ وذُرَى المآذن وأبراجُ الكنائس ومناقشاتُ علماء اللاهوت ووَجْدُ الكاهن أمام الهيكل وحماسةُ المؤمنين وطُوطَمِيَّةُ الهَمَج وطَبْوِيَّتُهم أموراً

لا تُدْرَك عند إغفال القُوَى العاطفية والدينية التى تُعيِّنها ، وهذه القُوَى إذ كانت واحدةً لدى جميع الأمم كانت ذاتَ مظاهرَ متشابهةٍ بحكم الضرورة .

٣ — العناصر الدينية والعاطفية فى المعتقدات الدينية

خلودُ الآلهة فى التاريخ يكفى لإثباته ملاءمةَ هذه الآلهة لاحتياجات النفس الثابتة ، وإذا حَدَث أن البشر غيَّروا آلهتَهم ، فى بعض الأحيان ، فإنهم لم يستغنوا عنها قطّ ، والناسُ شادوا القصور للآلهة قبل أن يقيموها للملوك ، وما احتياجُ الإنسان الراسخُ إلى الدين إلا كمناحى طبيعتنا الأساسية .

والروحُ الدينية عنصرٌ جوهرىٌّ من عناصر الأديان ، وهى ذات شأنٍ عظيم فى تكوين المعتقدات الدينية أو السياسية .

والروحُ الدينية هى ركنُ مختلفِ الأديان ، وتَجِد من أوصافها المشتركة ، لهذا السبب ، مخافةَ الأمرِ الخفىِّ والأملَ فى الأمر الخفىِّ وعبادةَ الأمر الخفىِّ .

أَجَلْ ، لم تؤدِّ الروح الدينية إلى غيرأجوبة خادعة عن مسائل الحياة والكون ، بَيْد أن هذه الروح سلكت بالإنسان طريقاً جديدة فقادته إلى المعارف التى نعيش اليوم بها بعد جهود دامت عِدَّةَ قرون .

وليست الروحُ الدينية الأساسَ الوحيدَ للمعتقدات الدينية ، فلهذه المعتقدات دعائمُ من العناصر العاطفية أيضاً ، ومن بين هذه العناصر نذكر الخوفَ والرجاء والاحتياج إلى التفسير على الخصوص .

والخوفُ هو أكثر تلك المشاعر تأثيراً على ما يحتمل ، وإلى الخوف يعزو لُوكْرِيسُ ظهورَ الآلهة .

وخوفُ الإنسان أمام القُوَى الهائلة التي يُحِسُّ إحاطتَها به أمرٌ طبيعيٌّ كرجائه في نَيْل حمايتها بالصلوات والهبات ، ومخافةُ القُوَى الطبيعية المتحولةِ إلى آلهة متشابهة بعض التشابه والأملُ في استمالتها من المشاعر العامة عند الشعوب ، فالجميعُ ساروا كما سار المكسيكيون بعد زمن ، فهؤلاء المكسيكيون إذ كانوا يجهلون الخيول عبدوا فرسانَ الإسبان ، من فَوْرِهم ، وقتما بدا هؤلاء الإسبان لهم حاملين أسلحتهم النارية قاذفين الصواعق بها .

ولا يبدو الخوفُ والرجاء في الأديان الابتدائية وحدَها ، بل يَبْدُوان ، أيضاً ، في أديان أمدن الأمم ، فما كانت لتَقُومَ للنصرانية قائمةٌ بغير الخوف من نار جهنم والأمل في نعيم الجنة .

والشروحُ السابقة ، وإن كان يُدْرَك بها أصل المعتقدات الدينية ، لا تَصْلُح لتفسير تكوين مختلف الأساطير ، فكيف ظهر جُوبيتِر وأَبُولُون وڤِينُوس ودِيَانا وكيف حدثت مغامراتُ هؤلاء ؟ لا يمكن العلمَ أن يجيب عن ذلك لِما كان من دخول عامل الخيال المستقل عن كلِّ منطق عقليّ في اختلاق تلك الآلهة الوهمية .

وليست بمجهولةٍ درجةُ بَسْطِ الخيال للحوادث وتشويهه لها ، والرُّؤَى والأحلامُ إذ كانت مَنْبِتاً للخيال ومَوْكِباً له فإنه يُفْسِد الوقائع التي قد تكون حقيقةً في بدء الأمر .

والأساطيرُ هي ، كمُعْظَم الحماسيات والأقاصيص ، مما ظَهَر في كلِّ زمن ، ونذكر منها الأوديسة وروايةَ ألف ليلة وليلة على الخصوص .

والأساطيرُ ، مع ذلك ، لم تتكوَّن إلا في قرون بما كان من إضافاتٍ وتحشيات وتحريفات متتابعة ، والأساطيرُ ، إذ أُدِيجَت بالأحاديث الشعبية ، اكتسبتْ ثباتاً

عظيما بالتدريج فكانت أصلَ الشعائر المقدسة التى تراعيها الأمم المتمدنة والأمم المتوحشة ، ومن ذلك أن هو پيس الكولورادو عانَوْا كثيراً فى اتِّباع شعائرِ ديانةٍ تقول بأن عالَم ما تحت الأرض آهِلٌ بموجودات جامة لشكل الوعول والأفاعى فتَمْلِكها امرأةٌ على شكل المنكبوت فتَنْسِجُ هذه المرأة السُّحُبَ التى يَسْقُط منها المطر .

وجميعُ الأديان مفعمةٌ بالأقاصيص المختلفة من أولها إلى آخرها ، ومن هذه الأقاصيص مغامرةُ ذلك الفارس الملحد الذى أراد مَلْءَ برميل صغير بماء يَنْبُوعٍ ثم بماء نهر ثم بماء بحر فَيُبْصِرُ الماءَ يَفِرُّ منه فى كلِّ مرة ، ووجب أن يكون هذا الفارسُ كثيرَ الشك لِما كان من تعاقب تلك المعجزات أمامَه لِيُثَبِّتَ إيمانَه .

حتى إن الكتب العلمية القديمة نفسَها مَحْشُوَّةٌ بالأقاصيص العقيمة التى هى ثَمَرَة الخيال المَحْض ، فتَجِدُ فى كتب التاريخ الطبيعىِّ التى أُلِّفَت فى عهد لويس الرابعَ عشرَ ، مثلاً ، أنه يكفيك لتنال دودَ قَزٍّ أن تُغَذِّىَ بقرةً بورق التوت وأن تقطع عِجْلَها إرْباً إرْباً وأن تَدَع هذه القِطَعَ تَعْفَن حتى يَخْرُجَ منها دُودُ قَزٍّ كثيرٌ ، ومما تراه فى تلك الكتب أن بُرادَة قَرْنِ الأَيِّل تُسَهِّل الوَضْعَ .

وبجانب تلك العناصر النفسية يُمَثِّل عامل الاحتياج إلى التفسير شأناً مهمّاً فى تكوين الآلهة .

وإذا عَدَوْتَ الأزمنة الحديثة لم تَجِد حوادثَ طبيعية ، فكلُّ حادثة كانت تُعْزَى إلى عزائم الآلهة .

فأجدادُنا إذ كانوا يَعْرِفون المبدأَ القائل بأن لا معلولَ بلا عِلَّة وكانوا يجهلون

تسلسل السُّنَن الطبيعية لم يُعْنَمُوا أن افترضوا وجودَ موجوداتٍ خارقة للعادة خَفِيَّةٍ قادرة خلفَ الحوادث مسببةٍ لها .

وكان تَدَخُّل تلك الموجودات يكفى للردِّ على ما يُمْلِيه حبُّ الاطلاع فى الإنسان من الأسئلة الكثيرة التى كان العلمُ غيرَ قادر على الجواب عنها ، فحَدَث ما كان من تأليه جميع قُوَى الطبيعة ، فكانت الآلهة تُسيِّر الشمسَ وتُنْضِج الثمرَ وتُرْسِل الصواعق ، وما كانت تفسيراتٌ كهذه إلاَّ ذات نَفْع عميم فى الأزمنة التى لم يَسْطِع البشر أن يتمثَّل غيرَها .

ومن بين العوامل النفسية فى تكوين الأديان نذكر حبَّ البحث فى عالَم آخر .

وتتجلَّى الرغبة فى الخلود فى أقدم الديانات حيث يُرَى بقاء طَيْف الموتى بعدهم ، بَيْدَ أن الحياة بعد الممات لم تظهر أمراً مرغوباً فيه على الدوام ، فقد قصَّ أوميرسُ فى الأودِيسة أن أولِيسَ نزَل إلى جهنم ليشاور تِيرِيزِيَاس فلاقى أشيلَ وحاول أن يُعزِّيَه بموته ، فأجابه طيف هذا المجاهد بقوله : « تعزيتُك باطلة ، فأُفَضِّل أن أظلَّ على الأرض عَبْداً لأفقر فَلاَّح على أن أكون حاكماً لقوم من الأشباح » .

والنصرانيةُ هى التى وَكَّدَت أمر الحياة الآخرة أكثر من غيرها ، فكانت الجنة والنار عاملَيْن عظيمين فى نجاحها .

وتُعَدُّ تلك المبادىء خياليةً فى أيامنا ، ولكن الرغبة فى الحياة بعد الممات تظلُّ قويةً فى قلب الإنسان ، وفى هذه الرغبة سِرُّ قوة المذهب الروحىِّ الذى يُعَلِّل أتباعَه بأملٍ فى حياة ثانيةٍ .

ومن دواعي الأسف أن العلم لم يكتشف ، بعد ، ما يُسوِّغ القول بالحياة الآخرة ، ولا يُرى ، مع ذلك ، أيُّ العناصر من طبيعتنا ما يُرْجى له الخلود أي القرار .

قال مِترلِنك : « من أيِّ شيء يُؤلَّف ذلك الشعور بالذات الذي يجعل من كلٍّ واحد منا مركزَ العالَم ، أي النقطةَ الوحيدة التي يُؤْبَه لها في المكان والزمان ؟ ليست هذه الذات ، كما تبدو لنا عند التفكير في تعاقب اضمحلالها ، رُوحَنا ولا جسمنا مادامت الروح والجسم أمواجاً تجري وتتجدد بلا انقطاع ، وهل الذاتُ أمرٌ ثابتٌ غيرُ الصورة والجوهر المُتحوِّلَيْن على الدوام ، أو غيرُ الحياة التي هي عِلَّة الصورة والجوهر أو معلولُهما ؟ حَقّاً أنه يتعذر علينا إدراك الذات أو تعريفُها أو بيان مَقرِّها ، ونحن ، إذا ما أردنا اسْتِبار غَوْرها ، لم نَجِدْ غيرَ سلسلة من الذكريات أو غيرَ سلسلة من الخواطر المختلطة المتحولة المرتبطة في غريزة الحياة ، ولم نَجِدْ غير مجموعة من عادات إحساسنا وغيرَ انعكاسٍ شعوريّ أو لا شعوريٍّ للحوادث المحيطة بنا ، والخلاصةُ أن ذاكرتنا هي أثبتُ شيء في سَديمِنا ...

« ... وليس مما نبالي به أن يَعرِف بَدَنُنَا أو جوهرُنا ، في الأبدية ، ضروبَ السعادة والمجد أو أن يعانيَ أروع التحولات وأعذبَها فيصيرَ زهراً أو عطراً أو جَمالاً أو نوراً أو أثيراً أو كوكباً ، فمما لا مراء فيه أنه يغدو ذلك ، فيجب أن نبحث عن موتانا في الفضاء والضياء والحياة ، لا في مقابرنا ، وليس مما نبالي به ، أيضاً ، أن يزدهر ذكاؤنا حتى يختلطَ بِكُنْه العوالم ويدركَه ويسيطرَ عليه ، فمما نعتقده أن هذا كلَّه لن يؤثر فينا ولن يَسُرَّنا ولن يَصِلَ إلينا ما لم ترافقنا ذكرى بعض الحوادث ،

التافهة تقريباً ، فتكونَ شاهدةً على تلك السعادات التي لا تخطر على قلب بشر » .

إذَنْ ، من الخير أن نَعْدِل عن الأمل الفتَّان في المحافظة على ذاتنا في عالَم آخر ، وهذه الذات هي التي لا نحافظ عليها في هذه الحياة الدنيا منذ الوِلادة إلى الممات لِما يعتورها من تَغَيُّر دائم .

وحياةُ ذرارينا هي عنصر الدَّيْمُومة الوحيدُ الذي يمكن الاعتماد عليه ، فهؤلاء الذراري يَحْمِلون في نفوسهم أشباحَ ألوفِ الأجداد كما نَحْمِلها في نفوسنا ، ويَبْدُو هذا الخلودُ غيرَ شخصيّ مع الأسف ، فلا نكترث له كثيراً ، فمن أَجْل ذلك نرى من الحكمة سيرَ عِطاشِ الأمل من المؤمنين إذا ما حافظ هؤلاء المؤمنون على آلهةٍ تَفْرِض عليهم ما تَقَرُّ به عيونُهم من حياة شخصية مقبلة .

والعناصرُ النفسية التي ذكرناها في غُضُون هذا المطلب ، كتأليه قُوَى الطبيعة والخوف والرجاء والخيال والاحتياج إلى التفسير وحبّ الخلود بعد الموت ، إذ كانت عواملَ أساسيةً لجميع المعتقدات فإننا نَجِدُها في أشدِّ الأديان اختلافاً ، ونُبْصِرُ بها كثيراً من الأوصاف المشتركة في تلك الأديان .

٣ — العناصرُ العقلية في المعتقدات الدينية

لم تُمَثِّل العناصر العقلية أيَّ دور في تكوين الآلهة ، والمؤمنون حينما حاولوا تسويغ إيمانهم بالعقول كانت الأديانُ قائمةً منذ زمن .

وعلى ما ليس للبراهين من تأثير في الإيمان ظَهَرَ علماء اللاهوت من المُبَرْهِنِين في كلِّ زمن ، وهؤلاء العلماء إذ حَصَرُوا أنفسهم في دائرة المعتقد ولم يَقْدِروا على الخروج منها حاولوا الحكم بالعقل في مبادئ بَدَا لهم وَهْيُها في بعض الأحيان .

ولم يألُ علماء اللاهوت فى القرون الوسطى جُهْداً فى بذل جهود عظيمة للتوفيق بين الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ومنطق أرسطو والمعتقدات النصرانية ، وكان هؤلاء العلماء يطمعون أن يكتشفوا ، بذلك ، براهينَ قاطعةً لدَعْم إيمانهم ، ومن هذه الفئة نُورِد القديسَ أنْسِيلْمْ مثلاً فنقول إنه كان يعتقد « وجودَ براهينَ تَكْسِر كبرياءَ اليهود والخوارج » ، فبَحَث عن هذه البراهين على غير جَدْوَى .

وما كان البابوات فى ذلك الزمن وفى زماننا لينظروا بعين القبول إلى تلك المزاعم العقلية ، ومن أولئك البابوات نذكر البابا غريغوارَ التاسعَ الذى قال فى القرن الثالثَ عشرَ : « إن هؤلاء العلماء اللاهوتيين المُبَرْهِنين بلغوا من الانتفاخ والغرور مايشابهون به الظُّرُوف » ، حتى إن القديس توما ، الذى تُوُفِّىَ سنة ١٢٧٤ ، غدا بعد موته عُرْضَةً لحَمْلةِ جامعةِ باريسَ فقضى أُسْقُف باريس ، فى سنة ١٢٧٦ ، على مذهبه قضاءً مُبْرَماً .

فعند أولئك أن البابواتِ على الحقِّ ما اقتضى الإيمانُ الصحيح انتحالَ العقائد بلا جِدال .

ثم إن تلك المحاولات العقلية كانت عقيمـةً على الدوام ، وما قام به العبقريُّ الكبير بَسْكَالُ من المباحث ينفع لإثبات درجة الوهم فى عَدِّ الإيمان أمراً عقليًّا .

ولم يَنْشَب العلماء أن عَدَلوا عن ذلك فى نهاية الأمر ، فالآن ترى علماء اللاهوت يعترفون ، طائعين ، أن العقل لا يَصْلُح لتسويغ الإيمان ، وتدلُّ جميع الملاحظات حول تكوين الأديان وتطورها على اشتقاق اليقين الدينىِّ من عناصرَ عاطفية ودينية ،

obeikandi.com

لا من البراهين العقلية ، فالبراهينُ العقلية ، و إن كانت تَدْحَضُ فوقه أحياناً ، لم يكن تأثيرها في المعتقدات إلاّ صِفْراً على العموم .

٤ — العناصر الجَمْعِيَّة في المعتقدات الدينية

كان علماء الاجتماع يُؤكِّدون منذ سنواتٍ الأثرَ الجَمْعِيَّ في الأديان ، وقد أَبَنْتُ هذه الظاهرة منذ زمن طويل حين كان العلماء ينكرونها كثيراً ، بيد أن من الخطأ ألاَّ يُرَى في الأديان سوى ظاهرتها الجَمْعِيَّة ، فالأديانُ هي ، كما أقول مكرِّراً ، من صنع الفرد ومن صنع الجموع معاً ، هي من صنع الفرد لِما يُرَى من مُوجِدٍ لها في الأساس ، كالنبيِّ أو الرسول ذي العمل المريض ، وهي من صنع الجموع لاشتقاقها عادةً من المعتقدات السابقة العامة ولتحول الأديان بعد أن تَسْرِيَ في الجموع ، فعلى ماتبصره من الشعائر والرموز التي تَثْبُت بها مظاهرُ المعتقد الخارجية تَفْصِل بين الإيمان الشعبي والكتب المقدسة هُوَّةٌ عميقة كما سنرى ذلك عما قليل .

والمعتقدات الدينية هي جَمْعِيَّةٌ أيضاً لتَوَقُّف نجاح الرُّسُل على اعتناق الناس لتعاليمهم اعتناقاً عامًّا ، وهي لا تنتشر إلا إذا لاءمت رغائبَ الزمن واحتياجاتِه ، وفي هذا تَجِد السِّرَّ في ابداع الرسل لقليلٍ من الأديان الثابتة مع أن عددهم كثير لا يُحْصَى في التاريخ ، ومَنْ وُفِّقَ منهم لهذا ، كبُدَّهَة (بوذا) ومحمد ، فقد ظهر في الوقت المناسب حين أضحى تَحَوُّلُ المعتقدات القديمة ضَرْبَةَ لازب .

فهنالك تنتشر العقائد الجديدة بالتلقين والعدوى النفسية وتعاني من فَوْرِها من التحولات ما تَفْرِضُه الضرورة .

والتحولاتُ التي تَفرِضُها المُؤَثِّرات الجَمْعِيَّة على الأديان عظيمةٌ إلى الغاية ،

فسَنُفْرِدُ لها فصلاً خاصًّا ، ويمكن تعريف كلِّ دين بأنه عملٌ فرديٌّ لم يَلْبَثْ أن يتحول إلى أمر جَمْعِيّ .

٥ — شأن الشعائر والرموز فى تكوين المعتقدات الدينية

لا يمكن تفسير الأديان بالعقل كما قلت غير مرة ، ولا ترى منطقاً عقلياً يقيم ديناً ويحافظ عليه ، فللأديان أُسُسٌ أخرى ، وإن شِئْتَ فَقُلْ إن جميع الأديان تستند إلى الأركان الثلاثة الآتية وهى : الإيمان والشعائر والرموز .

أَجَلْ ، إن الأديان تتطور ككلِّ عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية ، غير أن الشعائر والطقوس تَمْنَحها بعض الثبات لزمن معين على الأقل ، حتى إن الأديان لا تَتَّصِفُ بشىء من الدَّيْمُومة إلا بعد أن تستقرَّ بها رموز وشعائر .

ولا غُنْيَةَ لأىِّ دين عن الشعائر والرموز ، فبفضلها يَدْخُل المعتقد الجديد دائرةَ اللاشعور ، ويَتَحَوَّل الانتحالُ الموقت البسيط إلى إيمان وطيد قادر على تعيين وِجْهَة السَّيْر .

ولا تدوم دِيانةٌ عاطلة من الشعائر والرموز مقتصرةٌ على الإيمان وحدَه .

فانْظُرْ إلى جميع الدِّيانات ، انظُرْ إلى دِياناتِ كَلْدَة ومصر ، انْظُرْ إلى ديانات أوربة ، تَجِدْها مفعمةً بالشعائر الوثيقة والرموز المُقَرَّرَة ، تَجِدْ لآلهة كلِّ أمة معابدَ يَقْصِدُها المؤمنون فى أوقات معينة لِيُكَرِّرُوا فيها شعائرَ واحدةً وصلواتٍ واحدةً وتراتيلَ واحدة ، ومن ذلك أن شعائر النصرانية تقوم على إقامة القُدَّاس وعلى سِرِّ القربان المقدس وعلى تناول القربان وأن رموزها تقوم على الصور والتماثيل والرايات والأفئدة الملتهبة وحمامة روح القُدس الخ .

والشعائرُ والرموز إذ كانت أموراً منظورة مادية فإنه يتألف منها أيسرُ مايُعتنق في الأديان .

وسهولةُ انتحال الأمم للشعائر والرموز يُغوِي المؤرخين ، في الغالب ، حول اعتناق هذه الأمم لإيمان جديد .

حقًّا أن البرابرة انتحلوا ، طوعاً ، شعائر النصرانية ولكن روحهم ظلّت وثنية ، والبرابرةُ هؤلاء ، إذ كانوا عاجزين عن إدراك العقائد التي عُرِضَت عليهم ، عَبَدُوا القِدِّيسين كما كانوا يَعْبُدون آلهتهم غيرَ محتفظين من دينهم الجديد بسوى رجاء الجنَّة وخوفِ جهنم .

ولا تلبَث الشعائر المشتقة من العقائد أن تكتسب قوةً أعلى من قوة العقائد نفسها ، فالعقائدُ قد تُجْهَل أو يُمارَى فيها ، ولكن الشعائر تُحْتَرم على الدوام .

والدِّيانةُ تأخذ شكلَها الجَمْعِيَّ بتأثير الشعائر والرموز أيضاً ، والشعائرُ تزيد قوةً بممارستها المشتركة ، والشعائرُ تستحوذ على الخيالات الشخصية فتُمْسِك وَحْدَةَ الإيمان في الزُّمَر الاجتماعية ، والشعائرُ تُحْدِث عند كلّ واحد بعضَ الواجبات الإلزامية تبعاً للسلطان الدينيّ الذي يُعْزَى إليها .

وما اتَّفَق للشعائر من القوة العظيمة يَمْنَحها حياةً أطولَ من حياة الإيمان ، ومن ذلك أنك ترى محافظةَ أناسٍ تخلَّصوا من كلّ معتقد على كثيرمن الشعائر كالمَعْمُودِيَّة وتناول القربان الأول والزواج أمام الهيكل والدفنِ الدينيّ ، ومن ذلك أن العامل غيرَ المؤمن لا يَعُدّ نكاحه جِدِّيًّا إذا ما أُغْفِيَ عن الكنيسة وأنه يقع في ضيق نفسانيّ إذاما

اقتصر على الدفن المدنيّ، وتوثِقُه الشعائرُ الموروثة بأمواته، وماتُبصره من لاتينيّة القسّ ومن الصلوات والإشارات التي كرِّرت منذ ألفي سنة بربطها مَيِّتَ اليوم بموتى الماضي .

ويبدو الاحتياج النفسيُّ إلى الشعائر والرموز من التجبُّر ما تُضطرُّ معه اللاإكليروسية إلى إيجادها شعائرَ ورموزاً غيرَ ظانَّة أنها تُعارِض الأديانَ القديمة بدين جديد على الوجه المذكور، فما لدى الكنيسة الماسونية من الشعائر والرموز لا يقِلُّ عما لدى الكنيسة الكاثوليكية منهما .

وهنالك وجهُ شَبَه بين الشعائر والرموز في جميع الأديان مع ذلك، وتنشأ هذه المشابهة، لاريب، عن اضطرار الروح البشرية إلى إدماج تصوراتها في الدوائر النفسية القليلة التي أطْلَق عليها فلاسفةُ الماضي اسم مَقولاتِ الإدراك، فقوالبُ الفكر هذه إذ كانت تُقَيِّد التعبير عن الأمور فإنها تُحَدِّد ماتنطوي عليه التصورات الدينية، والشعائرُ التي تُمسِكها، من الممكنات .

وظاهرةٌ كتلك مما استوقف نظري في الغالب، فلما دَخَلْت، اتِّفاقاً، في معبد جَيْنِيٍّ قديم قائم في بلاد الهند، وذلك وقت القيام بشعائرَ دينية، ظننْتُني حاضراً لِقُدَّاسٍ كاثوليكيٍّ في بدء الأمر، وما كان يقام في المعابد المصرية من الشعائر منذ ثلاثة آلاف سنة أو أربعة آلاف سنة يشابه الشعائرَ التي تقام في كنائسنا المصرية بما يُثير العَجَب، فالحقُّ أن لغة الروح الدينية لم تتبدل قطُّ .

وما كانت الدِّيانات وحدَها هي التي تحتاج إلى شعائرَ ورموزٍ، فشأن الشعائر والرموز عظيمٌ، أيضاً، في النُّظُم الاجتماعية لِما تَمُنُّ به عليها من الثبات والنفوذ، فما الأعياد القومية والاجتماعات التذكارية العظيمة والراياتُ والتماثيل والاحتفالاتُ

الرسمية وحُلَلُ القُضَاة وجهازُ العدل مع موازينه الرمزية إلاَّ دعائمُ وثيقةٌ للتقاليد والمشاعر المشتركة التى فيها سرُّ قوة الأمم .

وما عرضناه آنفاً يُثْبِت أمرَ العناصر النفسية التى تُشَادُ بها المبادىء الدينية فنُبْصِر بها السبب فى تشابهها العميق مع اختلاف ظواهرها .

٦ — تَشَابُهُ المعتقدات الدينيـة فى جميـع الأمم

تَطَوَّرَ العقلُ البشرىُّ كثيراً فى غضون الأجيال، وبَلَغَتْ ضروب المعارف من كثرة النُّمُوِّ مالو بُعِث معه يونانىٌّ أو رومانىٌّ لَشَقَّ عليه أن يَهْضِم الاكتشافات التى تراكمت مع القرون .

ولـكن الذكاء إذا تقدم فإن المشاعر التى هى أساس طبيعتنا لم تتغير إلا قليلاً جدًّا ، فالحبُّ والحقد والحرص والحسد الخ ، أمورٌ ظَلَّت كما كانت عليه فى فَجْر الإنسانية ، وهى ، وإن أمكن ضبطُها أكثر من قبل على مايحتمل ، باقيةٌ على الدوام .

والمشاعرُ إذ تَغَيَّرَت قليلاً مع القرون كان من الطبيعىِّ بقاءُ النفسيةِ الدينية الصادرةِ عن العناصر الجَمْعِيَّة والدينية كما هى عليه ، فلنـا أن نُبْصِر ، إذَنْ ، مشابهاتٍ وثيقةً بين جميع الأديان .

وليس هنالك ما تَتَجَلَّى به معرفةُ المؤرخين ، فالمؤرخون يُبْدُون أدياناً متباينة تَسُود الأمم فلا يَرَوْن رابطةً بينها ، مع أن الواقع هو أنك إذا ماطرحت أسماء الآلهة وتفسـيراتِ علماء اللاهوت جانباً وَجَدْتَ مُشَابَهَاتٍ وثيقةً تحت تلك

الاختلافات الظاهرة ، فالناس ، وإن آمنوا بآلهة متعددة، عَزَوْا إلى هذه الآلهة قُوًى واحدة وطلبوا منها أموراً واحدة وعبدوها على صورة واحدة .

وعلى ماتشاهده من مُلاءَمة مظاهر المعتقدات الدينيـة لمزاج نفسيّ ثابت ، سارت هذه المظاهر وَفْقَ ماتقتضيه الحاجاتُ وشروط الحيـاة ، فمن الواضح ، مثلاً ، أن الآلهة لم تـكن غيرَ مَحَلِّيَّة حين اقتصار الوطن على المدينة ، ومما لا يَقِلُّ عن ذلك وضوحاً أن الإنسان إذا ماعَرَف اتِّبَاعَ الحوادث لسُنَنٍ ، لا لأهْـوَاء الآلهة ، بَدَا له بُطْلان طائفةٍ من الآلهة لم تَلْبَث أن تتوارى .

أدَّت مظاهر النفسية الدينيـة إلى قول المؤرخين بعدَّة تقسيمات ، فذهبوا إلى وجود الوثنية والروحية والتوحيد والإشراك الخ ، فهـذه التقسيماتُ إذا ما وُضِعَت على مِحَكِّ التحـليل النفسيّ تقلَّصَت إلى أبعد حدّ ، فانْظُر إلى مذاهب التوحيد ، مثلاً ، تَجِدْها فى الـكتب ، لا فى حَقْل العمل ، وانْظُر إلى الوثنيـة ، التى تُعَدُّ بين الأديان الابتدائية ، تَجِدْ ثباتَها لدى الأمم المتمدنة كما نرى ذلك بعد قليل .

وكذلك تَبْدو وَحْدَة مظاهر النفسية الدينية بوضوح فى أديان الأمم القديمة ، كالإغريق والمصريين والهنـدوس على الخصوص ، أى لدى تلك الأمم التى كانت صِلاتُ بعضِها ببعض قليلةً فلم يكن لبعضها كبيرُ تأثيرٍ فى بعض لهـذا السبب ، فعلى العموم تَجِد عند هذه الأمم تأليهَ جميع قُوَى الطبيعـة وعبادةَ النبات والحيوان والوثنيةَ والإشراكَ وقدرةَ الصِّيَغ السحرية وعبادةَ الأجداد الخ .

ونحن ، لـكى نجمع تحت نَظْرَة واحدة ضروبَ اليقين الدينىّ ، يجب أن

نُحَرِّرها من الأوهام التى تكتنفها وتَسْتُر طبيعتَها الحقيقية ، فهنالك ، فقط ، نَعْرِف ملاءمتها لاحتياجات النفس البشرية الثابتة المتماثلة لدى جميع الأمم ، فالأديانُ تَعْرِض فى كل مكان ، إذَن ، مُشابَهاتٍ عجيبةً مع ماعليه من الاختلاف .

ولو نَظَر المؤرخون إلى العناصر الجَمْعِيَّة والدينية التى هى مصدر النفسية الدينية لاكتشفوا تلك المُشابَهات منذ زمن طويل ، ولا قيمة للآلهة والشعائر ذاتِها ، وإنما القيمةُ كلُّ القيمةِ فى معرفة المِزاج النفسىِّ الذى أبدعها .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

ما يعتور المعتقدات الدينية الفردية

من التحولات حينما تصبح جَمْعِيَّةً

١ . التحولات التي تعتور دين علماء اللاهوت حينما يصبح جمعيا ـ
٢ . كيف تفسر الأمم طبيعة آلهتها ـ ٣ . ما يعتور الدين من التحولات
حين انتقاله من أمة إلى أخرى .

---

١ — التحولات التي تَعْتَوِر دينَ علماء اللاهوت حينما يصبح جَمْعِيًّا

يَصْعُب فَهْمُ تاريخ الأديان ، على الدوام ، لِما يبدو على وجهين مختلفين : العقائدِ والعملِ الشعبيِّ .

ونَعْلَم من الكتب فِكْرَ مُبْدِعي الدين وفكرَ أتباعه الأولين ، لا ما وَقَرَ في نفوس الشعب عنه ، وتَجِد علماءَ اللاهوت مملوئين دقائقَ فتُبَسِّط الجموع هذه الدقائقَ وتُحَوِّلها .

ويَصْمُت الكُتَّاب حَوْلَ هذه التحولات على العموم ، ويَقِفُون عند حَدِّ النصوص فقط ، مع ضَعْفِ قيمة هذه النصوص .

وليس من المستحيل دَرْسُ ما يَعْتَور إحدى الديانات من التحول حينما تَنْفُذ في الجموع ، حتى عند عدم الوثائق المُحْكَمَة ، وذلك لِما بين خطوط تلك التحولات

من مُشَابَهة فى كلِّ مكان ، فالتوحيدُ إذا زاوله الشعب ، مثلاً ، انقلب إلى إشراك على الدوام ، وفى كلِّ بلد تُعْبَدُ الآلهةَ على وجه واحد بشعائرَ متقاربةٍ جِدًّا .

ولم يُحَقِّقْ ، قطّ ، ما زَعَمَتْهُ الكتب المقدسة من إيجاد عقائدَ ثابتةٍ ، وكلُّ ما يؤدى إليه إثبات العقائدِ كتابةً هو إعاقتها للتحولات قليلاً .

وترى الجموع ، مع عدم مبالاتها بالنصوص ، تتهافت ، فى الغالب ، على ما يتعذر عليها فَهْمُهُ منها ، فالنفوسُ ، هنالك ، تقوم وتقْعُد بفعل ما يُلْقيه أقوياء المتهوسين من التلقين ، لا بفعل تلك النصوص ، فما كان الإصلاح الدينىُّ ليَتِمَّ ببراهينِ لوثرَ وكلْفينَ الهزيلةِ ، بل بتأثير بعض الرُّسل المباشر .

وبنفوذ الزعماء وتأثير العدوى النفسية يُفَسَّرُ سبب وَلُوعِ الجموع ، أحياناً ، بالجادلات اللاهوتية غيرِ المفهومة تماماً أو العقيمةِ بداهةً ، وماذا تَفْقَه النفوس التى اندفعت حماسةً فى سبيل الجانْسِنِيَّة فى عهد لويسَ الرابعَ عشرَ مع أن علماء اللاهوت لا يكادون يفقهون هذا المذهب ؟ نَعْلَم أنه عَنَّ لمتهوس اسمه جانْسِنيُوس أن يُحْيِيَ نظرية القضاء والقدر ، وما كانت تُرَّهاته لتُوَثِّرَ فى غير أناس من ذوى الأعصاب المريضة كان يغشاهم خوفُ جهنم وكانوا يرتابون بالرحمة الربانية فيَعيشُون فى شكّ وقنوط ، وأوشكت فرنسة آنئذ أن تُقْلَبَ رأساً على عَقِب بفعل تلك الغباوة التى لا تزال ذاتَ أثر فى الوقت الحاضر فتَجِد من المؤرخين المُتَّزِنين من يُخَصِّصُون لها مؤلفاتٍ مهمة .

وتَحَوُّل العقائد بانتقالها من روح علماء الكلام إلى روح الجموع هو نتيجةٌ للسُّنَّةِ العامة التى تشاهَد فى جميع الأديان بأوربة وآسية ، ولا سيما البرهمية والبُدَّهِيَّة (البوذية) .

وإننى ، قبل أن أبحث فى تينك الدِّيانتين البعيدتين ، أَذْكُر فى بدء الأمر أنه يُشَاهَد فيهما من مظاهر النفسية الدينية مثلُ ما فى الأديان الأخرى، ومنها النصرانية، كتعدد الآلهة والبِدَع والانفصال والانقسام إلى مذاهبَ والأديارِ والزُّهْدِ والشعائرِ الشديدة وحَجِّ المَزَارات الخ .

يتألَّف من الوِيدَا كتب البرهميـة المقدسة ، ولـكن البرهمية حين أضحت دِيانةً شعبية تَحَوَّلَت فصِرْتَ لا ترى بينهـا و بين النصوص التى أَوْحَت بها أىَّ شبه .

وَتَدُلُّنا البرهمية الشعبية ، فى الحقيقة ، على اختلاط وثيق بين أشدِّ المعتقدات اختلافاً ، وهى تَنِمُّ ، نظريًّا ، على ثالوث كبير ، تَنِمُّ على إله الحبِّ وِشْنُو وعلى إله الموت شِيوَا وعلى الربِّ المطلق برهما .

وعلى هـذا الثالوث الأساسىِّ فى البَدَاءة ، والثانوىِّ بعدئذ ، أَنْبَت الخيالُ الشعبىُّ ألوفَ الآلهة المشابهة كثيراً لآلهة العالَم القديم ، فغَدَت قُوَى الطبيعة والحيواناتُ النافعـة والضَّارَة وأشـباح المَوْتَى ومياهُ الأنهـار والريح والضياء آلهةً للشعب .

وإذا ما درسنا البرهميةَ فى كتب علماء اللاهوت والأدباء بدلاً من البحث عن البرهميـة الشعبية بَدَت لنا مبادىء دينيةٌ كثيرةُ الاختلاف ، بَدَتْ لنا الآلهة الثانوية أمراً مَنْسِيًّا تقريباً ، بَدَت لنا الموجودات المؤلفة من عناصرَ لا تَفْنَى تنحلُّ بعـد الموت فتَرْجِـع إلى صَدْر برهما ، وفى بعض تلك الـكتب قولٌ بمبادىء ارتيابيةٍ حَوْلَ خَلْق العالَم ، جاء فى الوِيدَا : « من أَين هذا الـكَوْن ؟ أهو من صنع خالق

أم لا ؟ يَعْلَم ذلك من يَنْظُر من فوق الفلك ، وقد لا يَعْلَم » ، فالحقُّ أنه لا يقام دين بمثل هذه المبادىء .

وتفريقٌ بين الإيمان الشعبيّ وإيمان المتكلمين يظهر أبرزَ من ذلك في البُدْهِيَّة، فهذه الدِّيانة التي قامت على إنكار جميع الآلهة لم تَعْتَم أن صارت أكثرَ الدِّيانات إشراكاً حينما انتقلت إلى نفسية الجماهير .

وعَرَضْتُ في كتابي « حضاراتِ الهند » تاريخَ ذلك التحول، ففي ذلك السِّفر يُرَى كيف كَشَف لي رِيَادِي(١) الأثريُّ ما اعْتَوَر البُدْهِيَّة من التطور وسببَ غياب هذا الدين عن البلد الذي ظهر فيه .

والمؤلفون إذ دَرَسوا البُدْهِيَّة في الكتب اعتقدوا ، بحقٍّ ، أنها دينُ زَنْدَقَةٍ ، وهم لم يبدأ خطأهم إلاَّ حين افترضوا أن هذه الزندقة صارت شعبية .

وهنالك فرقٌ تامٌّ بين البُدْهِيَّة النظرية والبُدْهِيَّة التي يزاولها المؤمنون .

ويمكن تلخيص مبادىء المصلح الأعظم بُدْهَة في بضعة أسطر ، فأقتطفها من تِينَ لكيلا يَرَى القارىء أنني أُبْدِي نظريةً شخصية تماماً .

قال تِينُ : « رأى بُدْهَة من الإلحاد أن يذهب إلى وجود كائنٍ عالٍ خالقٍ للعالَم ! ...

« ويتألف مذهب بُدْهَة من أربع حقائق ، فعنده أن كلَّ وجود هو ألَمٌ لِما ينطوي عليه من الهرم والمرض والحِرْمان والموت ، والذي يجعل من الوجود ألَماً هو الرغبةُ التي تَتَجَدَّد وتَتَنَكَّد بلا انقطاع ، والتي نرتبط بها في الأمور والفُتُوَّة

---

(١) راد الأرض يرودها روداً ورياداً : تفقدها .

والصحة والحياة ، فلكى نقضىَ على الألم يجب أن نقضىَ على الرغبة إذَنْ ، ولكى نقضىَ على الرغبة يجب أن ننكر أنفسنا وأن نتحرر من حبِّ الموجود وألاَّ ننجذب إلى أىِّ أمر أو إلى أىِّ موجود ... ويَصِلُ الحكيم إلى مرتبة إنكار النفس وعدم الشعور بأن يَعُدَّ كلَّ شىء فَانٍ لأنه مُرَكَّب ، وبأن الشىءَ ، لفَنَائِه ، ليس سوى ظاهرة واهية متداعية ، أى حادثةٍ فى طريق الزوال كالزَّبَد الذى يظهر على وجه الماء ثم يَذْهَبُ جُفَاءً[1] ، أو كالخيال فى المرآة ، وإن شِئْتَ فقُل إن الحكيم يبلغ ذلك باعتقاده الجازم أن الأشياء متلاشية » .

وهذا المذهب هو ما وَرَد فى الكتب كما ذكرتُ ، وهذا المذهبُ هو ما ظلَّ خافياً على الشعب ، ثم هَدَتْنى دِراسة النقوش البارزة فى الهند إلى مصير تلك الأفكار الفلسفية عند نفوذها روحَ الشعب ، فمِنْ مُنْكِر الآلهة بُدَّهَة جَعَل الجمهورُ إلهاً واحداً فى بدء الأمر ، ثم أحاط الجمهورُ هذا الإلهَ بكتيبة من الآلهة الأخرى مُغْرِقاً إياه فيها فى بضعة قرون ، وبُدَّهَةُ ، إذ صار بذلك غيرَ ممتازٍ من الآلهة الأخرى ، غدا مَنْسِيًّا فغابت البُدَّهِيَّة كديانةٍ خاصة .

فذلك الانتقال من الزندقة الفلسفية إلى الإشراكِ الشعبىِّ يُلْقِى نوراً قويًّا على جهاز النفسية الدينية الخفىِّ .

٢ — كيف تُفَسِّرُ الأممُ طبيعةَ آلهتها

تُثْبِت الوقائع السابقة ، بوضوحٍ ، ماذا تَصِير إليه العقائد بانتشارها بين الجموع ، ولكنها لا تدلنا على الوجه الذى يتمثل به المؤمنون آلهتهم .

---

(١) يذهب جفاء : يذهب باطلاً متلاشياً .

بلغ تَمَثُّل ذلك الوجه ، الخاصِّ بشعوب ذاتِ مزاجٍ نفسيّ مختلف عن مزاجنا كالإغريق والرومان مثلاً ، من الصعوبة ما أعرض المؤرخون معه عن محاولته ، وماذا يَعْنى عند الرومانيِّ القيصرُ الذى كان يَعْبُده ويشيد المعابدَ من أجله ؟ وكيف كان يجعل من الرجل إلهاً بسهولة ؟ أفمن المحتمل أن كان يُفْتَرَض حلولُ الروح الربانية فى الأبطال ؟ كان هذا التأليه يَعْدِل تقديسَ الصالحين فى النصرانية ، فالقِدِّيسُ ، كالقياصرة ، رجلٌ يُؤَلَّه بعد موته وتقام المعابد فى سبيله .

ويمكننا أن نَتَمَثَّل بأحسنَ من ذلك مبدأَ الألوهية الذى كان يَدُور فى نفوس أناسٍ أقلّ تهذيباً من أولئك ، كأجدادنا النصارى فى القرون الوسطى مثلا ، فالربُّ وأولياؤه عند هؤلاء الأجداد كانوا يَلُوحُون أشخاصاً قادرين فتُنَال الحظْوَة لديهم بالصلوات والهِبات .

وكان بعض المؤمنين لا يترددون فى إبداء امتعاضهم بعبارات قاسية عندما لا تناسب المكافأةُ التى ينالونها ما يُقَدِّمونه من العطايا ، قال المؤرخ المشهور فُوسْتِلْ دُو كُولَانْج متكلماً عن ممارسة النصرانية فى القرون الوسطى :

« كان ذلك الدين ماديًّا غليظاً ، فما حدث ، ذات يوم ، أن القِدِّيس كُولُومْبَانَ عَلِم سَرِقَةَ ماله وقتما كان يُصَلِّى عند ضَرِيح القِدِّيس مَارْتَن فعاد إلى الضريح وخاطب القِدِّيس قائلاً : « أتَظُنُّ أننى جئتُ لأصلىَ عند قبرك فيُسْرَقَ مالى ؟ » ، معتقداً أن القِدِّيس يَدُلُّه على السارق ويُعيد إليه المال المسروق ، ومما حَدَث أن وقعت سَرِقَةٌ فى كنيسة سَنْت كُولُومْب بباريسَ ، فأُهْرِع إلْوَا إلى المزار وقال : « أَنْصِتِى إلى ما أقوله إليكِ يا سَنْت كُولُومْب : إنك إذا لم تعملى على إعادة ما سُرِق منى هنا أغلقتُ باب كنيستكِ بأكداسِ الشَّوْكِ وصار

لا يُؤْتَى بعبادةٍ لك » ، وتُعاد الأموال المسروقة فى الغد ، ويُعدّ كلُّ قِدِّيس ذا قُدْرَة خارقة للعادة يُسَخِّرها فى سبيل عباده ، وهكذا كانت العبادة تسير مُغَازَرَةً(١) » .

وظلّ ذلك المَنْحَى أمراً عامًّا فى القرون الوسطى و بعد القرون الوسطى ، حتى إن الملوك كانوا هم والشعبُ فى ذلك سواء ، فقد روى مسيو لافِيس أن لويس الحادىَ عشرَ حاول أن يستميل أهل الجنة النافذين بالعطايا ، قال لافيس :

« كان ذلك الملك يُتْعِب موظفى ماليَّتِه بتبذيره فى سبيل القديس مارْتَن والقديس مِيشِل والقديسة مارْت الخ ، فكان على أولئك الموظفين أن يَجِدُوا له مبلغاً ضَخْماً فى بضعة أيام ليكافىء به قدِّيساً يُبْدِى له أطيبَ خيره أو ليشترىَ به وساطةَ قِدِّيسٍ ، ومن ذلك أن مُنِح القِدِّيس مارْتَن فى تُورَ ١٢٠٠ دينار بعد الاستيلاء على بِرْبِنْيان ، وأن مُنِحَت عذراء بوى عشرين ألف دينار بعد وِلادة ولى العهد ، ومن ذلك أن أراد جان بُورِه منحَ شارل الجرىء من فتح نوَيُّون فى سنة ١٤٧٢ فأرسل إلى صائغ ١٢٠٠ دينار ليصنع « مدينةً من فِضَّة لِنُوتِرْدَام » .

وما كان لويسُ الرابعَ عشرَ لينظر إلى الأمور على غير ذلك الوجه عند ماقال لائماً بعد هزيمة مالْپالْكِه : « أَنَسِيَ الربُّ ماذا صنعتُ له ؟ »

وَمَنَاحٍ كتلك مما يبدو لدى الأتقياء فى كلِّ جيل ، فلا تَجِد فى محلٍّ آلهةً لاتُستمال بالعطايا ، وما فى الروح البشرية من احتياجاتٍ واحدة يؤدى إلى مظاهرَ

---

(١) غازر : وهب شيئاً ليرد عليه أكثر مما أعطى .

واحدةٍ فى كل مكان ، فالناسُ إذ كانوا يفترضون الآلهةَ على شاكلتهم فكيف لايتخذون من الوسائل تجاه تلك الموجودات المرهوبة مثلَ الذى يتخذونه تجاه ذوى السلطان فى هذه الدنيا ؟

٣ — ما يَعْتَورُ الدينَ من التحولات حين انتقاله من أمة إلى أخرى

بَيَّنَّا التغييراتِ التى تَعْتَور الأديان عند انتشارها بين مختلف طبقات المجتمع الواحد ، وتكون تلك التحولاتُ أعمقَ من ذلك عند انتحال شعوب مختلفةٍ لدين واحد .

ويَقِف علماء الكلام عند حَرْفِيَّة العقائد فلا يطالبون المؤمنين بغير ممارسة الشعائر فيعتقدون ثبات مذاهبهم مهما كان الشعب الذى يعتنقها ، مع أن الدِّيانة إذا ماقالت بها شعوبٌ مختلفة تَغَيَّرَت تَغَيُّراً كُلِّيًّا .

فإذا نظرتَ إلى البُدَّهِيَّة فى الهند وإليها فى اليابان والصين لم تَجِد بينهما أىَّ شَبَه ، وقد بَلَغا من الاختلاف ما بَدَت معه البُدَّهِيَّة فى هذين البلدين الأخيرين ديناً جديداً للعلماء الباحثين الذين درسوها المرة الأولى .

واتفق للإسلام مثلُ تلك التحولات عند انتقاله من بلاد العرب إلى بلاد الهند ، فالإسلامُ فى الهند غدا كثيرَ الإشراك مع أنه أكثر الأديان توحيداً ، والإسلامُ لدى الدَّرَاوِيد فى الدَّكَن لايختلف عن البرهمية إلاَّ بعبادة محمد ، وقُلْ مثلَ هذا عن الإسلام فى الجزائر حيث تراه عند العرب غيرَه عند البربر .

وتطبَّق سُنَّة تَحَوُّل المعتقدات ، بانتقالها من شعب إلى آخر ، على جميع عناصر

الحضارة، فقد أثبتُّ منذ زمنٍ فى كتابى « سُنَنِ تطور الأمم » أن أيَّةَ أمةٍ لاتنتحل فنونَ أمةٍ أخرى ونُظُمَها ولغتها من غير أن تُحَوِّلها تحويلا كبيراً .

فمن الوَهْمِ ، إذَنْ ، أن يُعْتَقَد ، مع بعض المؤرخين ، أن الأمم تُغَيِّر آلهتها كما تشاء ، وليس انتحالُ أمم بأجمعها ديناً جديداً إلا أمراً خيالياً ، وإذا لاح أن أمماً كثيرة اعتنقت النصرانية أو الإسلامَ أو البُدَّهِيَّةَ ، مثلاً ، وإذا مارَضِيَت أممٌ كثيرة ، نظريًّا ، بنصوص الكُتُب المُقَدَّسَة من غير أن تَفْقَهَ كلمةً منها ، فإن هذه الأممَ لم تنتحل من هذه المعتقدات ، بالحقيقة ، سوى بعض الصِّيَغ و بعض الشعائر ، ولم تُمْسِك من الإيمان الجديد بغير العناصر الملائمة لاحتياجاتها ومشاعرها ، وكيف يكون الأمرُ غيرَ ذلك مع ذلك ؟

ومن الجهل العميق لجهاز المعتقد أن يُفْتَرَض أن أمةً بأسْرِها قادرةٌ على اعتناق عقيدةِ دِيانةٍ جديدة من فَوْرِها ، فإذا ماظهر أنها فعلَت ذلك كان ذلك إجابةً إلى أوامر رؤساءَ مرهوبين ، ولكن مثل هذه القَلْبِيَة لاتَعْدُو حَدَّ الكلام ، وفى الكتب وحدَها تُبْصِر أن هنرى الثامن فَرَض البروتستانية على انكلترة وأن ابنتَه مارى تيودُر أعادت إليها الكَثْلَكة وأن ابنته الأخرى إليزابت حَمَلَت رعاياها على العَوْدَة إلى البروتستانية .

ونُلَخِّص هذا الفصل فنقول : إن ثبات الأديان أمرٌ ظاهرىٌ ، وإنه يمكن العقائدَ المُدَوَّنَة أن تظلَّ ثابتةً ، وإنَّ الشعائرَ وإنْ دامت طويلَ زمنٍ فإن المبادىء الدينية تَتْبَع نفسية من يعتنقونها فى الحقيقة ، وإن هذه المبادىء تكتسب وصفاً مشتركاً عند ما تَنْفُذ فى روح الشعب ، وإن الآلهةَ ذاتُ قُوًى متشابهةٍ فيُصار إلى استمالتها بوسائلَ متماثلة ، فالآلهةُ تَبُثُّ فى كلِّ مكان آمالاً واحدةً ومخاوفَ واحدةً وأحلاماً واحدة .

obeikandl.com

الفصل الثالث

آلهة العالم القديم

١ . عبادات البشرية الأولى المفترضة : الوثنية والطوطمية والروحية الخ . ـ ٢ . آلهة العالم الإغريقى الرومانى ـ ٣ . عبادة الأموات ـ ٤ . تأليه المجردات والأبطال ـ ٥ الفؤول والهواتف .

١ — عبادات البشرية الأولى المُفْتَرَضة : الوثنية والطُّوطَمِيَّة والروحية الخ

تُشْتَقُّ الافتراضات التى نُسجت حول عبادات البشرية الأولى من دِراسة الأديان لدى الهَمَج فى الوقت الحاضر ، وتُتَبَّع بعض الآراء التى لا يُقِرُّها علم النفس ، فيُظَنُّ فى بدء الأمر أن الدِّيانات قامت على الوثنية والروحية ، ومن المؤرخين من قالوا إن الطُّوطَمِيَّة سبقت تلك الدِّيانات الأولى ، والطُّوطَمِيَّة ما تَجِد وصفَها فى تَسَمِّى كثيرٍ من العشائر الوحشية بأسماء الحيوان أو النبات .

وما قام به علماء الاجتماع من الأبحاث الكثيرة لم يُؤَدِّ إلى اكتشاف عبادةٍ ابتدائية خاصَّةٍ فى الطُّوطَمِيَّة ، ولا شىء يُمَيِّز الطُّوطَمِيَّة من الوثنية فى الحقيقة ،

obeikandl.com

والطوطمُ ، حيواناً كان أو نباتاً أو جماداً ، يبدو رمْزاً لاجتماع قبيلةٍ فلم يلبث أن يصير وثناً ، والطُّوطمُ يمكن قياسه بالصور التي ترْسَم على الرايات وبأشعرة القادة المقاتلين في كلِّ زمن ، فالطُّوطميَّةُ ليست ديناً ، والدينُ لم يغزُ بيضتها إلا بعد زمن .

وتظهر الروحية لنا وثيقةَ الصلة بالوثنية مع أن المؤرخين يفصلونها عنها ، فمن المتعذر أن يكون أقلُّ الهمج ذكاءً قد عَبَد حجراً أو خشباً من غير أن يُفترض اشتمالُه على أرواح خفية ، والتفريقُ الوحيد بين الوثنية والروحية ، وهذا التفريقُ مَوْضِعُ جدَل ، هو ما يقوم على قول الروحية باستقلال الأرواح وسيرها كما تشاء بدلاً من استقرارها بالأشياء .

أجَلْ ، إن الوثن فرديٌّ أحياناً ، ولكنه جمْعِيٌّ في الغالب ، وتُعبِّر تلك الطُّوطمِيَّة عن وثنيَّة جمْعِيَّة .

ويُخيَّل إلى الرجل العصريِّ أنه تخلص من الوثنية تماماً ، وهو لا يُحدِّث عنها إلا بازدراء ، وحياةُ الرجل العصريِّ حافلةٌ بالوثنية مع ذلك ، فكثيرٌ من أحرار الفكر يؤمنون بالفأل والطِّيَرة وبتأثير الرقم ١٣ وما إلى ذلك من الخرافات ، وأشدُّ المؤمنين توحيداً في الظاهر لا يُمارون في مَزِيَّة ذخائر القدِّيسين والنُّصُمات(١) وفي قدرة الينابيع العجيبة والحجِّ على الشفاء ، وتُزيِّن النُّذور بكثرةٍ جُدُرَ عددٍ كبير من الكنائس الحاضرة كما كانت تُزيِّن معابدَ الإغريق القديمة لصدورها عن مزاج نفسيّ واحد .

(١) النصمة : الصورة المكرمة .

obeikandi.com

وسواء عليك أنظرت إلى الروحية أم إلى الوثنية أم إلى أية ديانة أخرى لم تجد للشعائر والقرابين غيرَ شأنٍ جوهرى ، ومما تُبصِره شِدّةُ التنظيم فى شعائر الأمم التى تقدّمت فى الحضارة كالإغريق والرومان والمصريين واليهود ، ومما يشتمل عليه سِفرُ اللاويِّين كثرةُ مايدور حول الطُّقوس من التعاليم ، ومما تشير إليه هذه التعاليم مايمارسه مُعْظم الأُمم من القرابين الاستغفارية ، وماقِيءَ يَهْوَه يطالب بها ، وكان هـذا الإله الجبّار يُسَرُّ بقتار اللحم ، وودّ سليمان أن يُرْضِيَه فذبح عِدّةَ قِطاعٍ من البقر دفعةً واحدة .

٣ — آلهةُ العالَم الإغريقىّ الرومانىّ

يَعْسُر على أىِّ رجلٍ عصرىّ أن يُدْرِك درجةَ نفوذ الحياة الدينيـة فى العالَم القديم ، ولو كان ذلك الرجلُ قوىّ الإيمـان ، وكلما رَجَعْنا فى التاريخ بدا لنا عمل الآلهة عظيماً ، فالآلهةُ كانت ، فى الحقيقة ، ذاتَ نفوذ لم تفتقده إلا بالتدريج ، وسُنَنُ الطبيعة إذ كانت مجهولةً لدى الإنسان عَزَا الإنسان ، بحكم الضرورة ، إلى طائفة من الآلهة ما كان يَشعُر بفعله من القُوَى الخَفِيّة والسِّرِّيّة والمرهوبة ، فالريحُ والرعد والزوابع كانت عنده من المظاهر الإلهية ، وكان للينابيع والأنهار والغابات آلهتُها ، وكان الإنسان يَعُدُّ هذه العناصرَ ذاتَ عزائمَ مشابهةٍ لعزائمه فيحاول استمالتَها بوسائلَ مماثلةٍ للتى ينال بها حماية أعاظم الناس كالقرابين والأدعية والهِبات .

ونحن ، من غير عَوْدَةٍ إلى ماهو أبعد من الأمم القديمة كالإغريق والرومان والمصريين ، نقول إن الحياة الدينية كانت تستحوذ على حياة هؤلاء جميعهم ، وقد

أثْبَت فُوسْتِل دُوكُولَنْج ذلك منذ طويلٍ زمنٍ فقال مُحدِّثاً عن العالَم الإغريقىّ الرومانىّ : « إن الدين كان سيداً مطلقاً للحياة الخاصة والحياة العامة ، و إن الدولة كانت جَمْعِيَّةً دينية و إن الملك كان حَبْراً والقاضىَ كاهناً والقانونَ نصّاً مقدساً والوطنيةَ إحساناً والنَّفْىَ حِرْماناً » ، ومما ذكرتُه فى موضع آخر أن الحقوق الفطرية كانت تُشْتَقُّ من الشريعة الدينية على الدوام .

ولم يطرأْ تغييرٌ بتعاقب القرون على الوجه الذى تنظر به الأممُ إلى آلهتها ، ومَدَى ماتَعْزوه الأمم إلى هذه الآلهة من القدرة هو الذى تبدَّل قليلاً .

وظَلَّتْ تلك القدرةُ محدودةً زمناً طويلاً ، حتى إنه كان يَعْلو جُوپيتِرَ ، حينما أضحى مِلكَ السماء ، سيدٌ حافل بالأسرار ، أى كان يَعْلوه القدرُ .

وأما الآلهـة العادية فـكانتْ تدنو من الناس بالأنكحة ، فعُدَّ أشيل ابناً للإلاهة تِيتيس ، وعُدَّت ڤِينُوس والدةً لإينِه الخ .

وتشير أقاصيص أوميرسَ إلى حدود القدرة التى كان الإنسان يعزوها إلى آلهته آنئذ ، فالإنسانُ ، و إن كان يخشاها كثيراً ويَضْرَع إليها فى الغالب ، كان يَجْرُؤُ على مقاتلتها فى بعض الأحيان ، ومن ذلك أن دِيُوميد جَرَح ڤِينُوسَ ، فى أثناء حصار تِرْوَادَه ، بسهمٍ وأكثرَ من تهديدها ، وأنه ضرب الإله مارْس عندما أراد الانتقامَ لها منه ، وفى إبَّان ذلك الحصار الشهير كانت الآلهة تتدخل فى المعارك كلَّ يوم ، ويحيط نِپتُونُ ابنَ دَرْدَانُوس بغمامٍ حفظاً له من ضَرَبات أشيل ، و يصنع أَپُولُون مثلَ هذا فى أمر هِكْتُور ، ويَشْعُرُ جونون بعجزه تجاه إله النهر سِكَامَنْدِر الذى أراد إهلاك أشيل فيطلب حماية ڤُولْكَن ، فلم يُوَفَّق هذا لِما طُلِبَ منه إلا بإحداثه حريقاً هائلاً تقهقر النهر أمامه .

وإذا ما نظرنا إلى القصة التى عزاها ڤيرجيل إلى إينيه ، فلم تكن غيرَ انعكاسٍ لخواطرِ ذلك الزمن بحكم الطبيعة ، وَجَدْنا أنه كان لابدَّ من مساعدة نِپْتُون وجونون وبالأَسِ للقضاء على مقاومة أهل تِرْوَادَه ، وكانت تلك المساعدة مادية جِدًّا لِما حدث من زعزعة أسوار تِرْوَادَه بِخَطَّاف[1] نِپْتُون المثلوث النَّصْل .

ويظهر أن الأُخْيِلة الأوميريةَ تبدلت قليلاً فى غُضُون الأجيال ، ففى عصر أُغُسطس لم يُؤمِن الناس كثيراً بتدخل الآلهة فى سَيْرِ الكَوْن وإن كانوا يَخْشَونها .

قال هوراس : « أَعْرِفُ أن الآلهة تعيش هادئة ، فإذا ماصَدَر عن الطبيعة بعضُ العجائب لم تُكَلِّف الآلهةُ نفسَها ببسط يدها » .

ومن ثَمَّ ترى أن الطبيعة كانت تُعَدُّ فى ذلك الحين كَوْناً حافلاً بالأسرار يُسْتعان به على إيضاح الأسرار .

ولم يكن المبدأ القائل بقدرة الآلهة المحدودة خاصًّا بالعالم اليونانى الرومانى ، فمثلُ هذا المبدأ تُبْصِره فى جميع دِيانات الهند ، فتراه فى حماسياتها الكبرى ، حتى فى أبسط رواياتها كرواية شَكُن تَلا حيث خَفَّت الآلهة إلى مساعدة بعض الناس .

وكان المعتقدُ القائل بآلهة ذات قدرة محدودة ، والمناقضُ للمبدأ القائل بإلهٍ شامل ذى سلطان مطلق كالإله الذى بَدَا فيما بعد ، نتيجةً واجبة لتعَدُّد الآلهة ، فما كان لأىٍّ من هذه الآلهة نفوذٌ مماثل لنفوذ بقيتها كما هو واضح ، فكنتَ ترَى

---

(١) الخطاف : حديدة يختطف بها .

تحت الثالوث المؤلف من أقوى الآلهة : جوپيتر وجونون ومنيرڤا ، والمعبود فى الكاپيتول الرومانىّ ، آلهةً صغيرة ذات قدرة ضيقة .

وكانت تلك الآلهة التى لا يُحصيها عدٌّ متفقة على الدوام، ولم يدُر فى خلد أحدٍ من آدميٍّ ذلك الزمن القديم أن يضطهد عبادَها ، وكان يسهُل على قاهرى الأمم المغلوبة المجاورة أن يعبُدوا آلهةَ هذه الأمم ، فنُسِجَت حول آلهة الإغريق والقرطاجيين والمصريين الخ، الأقاصيص وأُدْخِلَت إلى حظيرة الدين القوى، فوُحِّد البَعْلُ البُونِىُّ (القرطاجىّ) مع ساتُورن ، ووُحِّدَت دِيانا مع أَرْتيمِيس ، ووُحِّدَت جُونونُ مع إيزِس وتانِيت ووُحِّدَت ڤينوسُ مع عَشْتار القَرْطَاجِيَّة الخ .

فبمثل تلك الوسيلة انتشرت الآلهة الرومانية فى الولايات الخاضعة لرومة واختلطت أو امتزجت بالآلهة المحلية ، والنصارى وحدَهم هم الذين شذُّوا عن ذلك بعد زمن ، فلم يكن النصارى لِيَحْنُوا ظهورَهم أمام آلهةٍ تَعُدُّها كتبهم من العفاريت ، وجحودُ النصارى هذا غدا مصدراً لتلك الاضطهادات التى عُدّت دينيةً زمناً طويلاً مع أنها سياسية صِرْفة ، أَجَلْ ، إن رومة كانت تقول بجميع الآلهة ، ولكنها كانت تطالب عُمَّالَها وضباطها باحترام آلهتها القومية وقيصرها .

وجُزْئِيَّاتُ عبادة الآلهة لم تتغير إلاَّ قليلاً مع الزمن ، فترى المؤمنَ المعاصر يطلب حماية القديسين كما كان القدماء يطلبونَ حماية آلهتهم ، ومن ذلك أن وَصَفَ مسيو مسپيرو عبادةَ أمون فى معبد الأقصر قبل الميلاد ، بطويلِ زمنٍ ، بعباراتٍ تُطبَّق تطبيقاً تامًّا على الدِّيانات الحاضرة مع تغيير بضع كلمات .

٣ — عبادة الأموات

ظلّت عبادة الأموات جزءاً من الأديان على ما يظهر ، فتجدها في جميع العصور لدى مُعْظم جميع الأمم المُتَرَجِّحة بين قدماء اليونان والمعاصرين من اليابان .

وعبادةُ الأموات ، إذ كانت غالبةً في بلاد الإغريق وإيطالية ، ثَقُلَت وطأتها على العالم القديم ، فكانت العقوبات شديدةً عند عدم مراعاتها بدِقَّة .

قال فُوسْتِلْ دُوكُولَنْج : « كان لدى الإغريق والرومان آراء متماثلة ، فإذا ما انقطعوا عن تقديم المآدب المَأْتمِيَّة خَرَج الأموات من أجداثهم أشباحاً نُوَّاحاً في الليل الصامت لائمين الأحيـاء على إهمالهم الإلحادىّ باحثين عن مجازاتهم مرسلين إليهم المرض أو الجدب مُكَدِّرين صَفْوَهم حتى يعودوا فيقيموا المآدبَ المَأْتمِيَّة » .

وكانت خَشْيَة الأموات أمراً عامًّا ، فلما رأت كِلِيتِمِنْستر في منامها أن أرواح أغا ممنون غاضبةٌ عليها أرسلت أطعمة إلى ضريحه من فَوْرها .

وفي مبدأٍ وُجِدَ لدى جميع العُرُوق ، تقريباً ، دلالةٌ على أن كلَّ موجود أو كلَّ شيء منظور ينطوي على ضرب من الروح الخفية ، وفي هـذا سرٌّ ما كان من كفاية شَبَح الهِبات لإرضاء شبح الأموات ، وفي هـذا سرُّ ما كان من ذَبْحِ كثيرٍ من الأمم في مآتم العظماء كثيراً من الأفراس والخدَم لمصاحبتهم في الحياة الآخرة ، فعلى هـذا الوجه يَصِلُ شَبَح الفقيد إلى مملكة الأموات محروساً حَرْساً لائقاً ، وفي البِيرُو كان يُهْلَك على قبر الملك المُتَوَفَّى عَذارَى معبد الشمس لتكون أشباحُهن حاشيةً له .

والآلهة التي تتألف من أشباح المَوْتى لدى الإغريق والرومان كانت توصف بالآلهة البَيْتيَّة ، فكان الرومان يقولون : « إنها آلهةٌ مرهوبةٌ موكولٌ إليها أمر مجازاة النـــاس والسهرِ على كلِّ ما يحدث في داخل المنازل » ، وكان كلُّ بيت يشتمل على هيكل تجتمع فيه الأُسْرَة فتُصَلِّي للأجداد وتقدم إليهم بعض الهدايا الزهيدة .

وعبادةُ الأموات تلك تكفي لإيضاح تأليه القياصرة الذي أدهش مؤرخين كثيرين ، وذلك فَضْلاً عن الأسباب المذكورة في فصل آخر ، فإذا كان أحد أفراد الناس يَغْدو من الآلهة بعد موته فإن من الطبيعيِّ أن يصير القيصر من آلهةٍ أكثرَ أهميةً من تلك وأن يعبده الشعب فضلاً عن أفراد أُسْرَته .

وداوم كثير من الأمم على عبادة الأموات حتى أيامنا ، ومن عبادة الأموات يَتَأَلَّف الدِّين الرئيسُ في الصين واليابان ، ومما سمعته من رجل من أكابر رجال اليابان ، وهو الآن سفيرٌ لدى إحدى دول أوربة العظمى ، أنه إذا ما عاد إلى بلاده لم يَتَوانَ في التردد إلى الهيكل الخاص بأجداده ، ومما قلته غيرَ مرة أن إرادة الأموات تسيطر على إرادة الأحياء ، فالإنسان يَشْعُر ، عَمَلاً ، بالصلة الوثيقة التي يرتبط بها في الأجيال السابقة فلم يكن ، بالحقيقة ، غيرَ مُوَاصِلٍ لها .

ويجب ألاَّ يُعَدَّ من الخيال وحدَه ، إذَنْ ، زَعْمُ أمير البحر الشهير ، توغو ، حين صَرَّح ، بعد أن نال أعظم انتصار بحري في الوقت الحاضر ، أن ذلك النصر تَمَّ له بفضل أجداده ، لا بفضل نفسه ، أَجَلْ ، يعود فضل قسم كبير من ذلك الانتصار إلى أمير البحر ذلك ، ولكن أليس الأجداد المُوجِدُون لروح اليابان القومية هم

الغالبين الحقيقيين ؟ ألا إننا مدينون للأموات بفضائلنا ، ونحن إذا ما وُجِدَ لنا بعض القيمة كان ذلك بفضلهم على الخصوص .

ودين الأموات لم يَتَوَارَ قطّ ، و إن ضاق نطاقه لدى كثير من الأمم ، وهو يقتصر عند النصارى على تمجيد القديسين ، ولدى النصارى عيدٌ سنويٌّ لزيارة قبور الموتى .

٤ — تَأْلِيهُ المُجَرَّدات والأبطال

يُضاف تأليهُ العظماء ومختلفِ المجامع عند بعض الأمم إلى عبادة الآلهة التى تكلمنا عنها آنفاً ، فالرومانُ كانوا يُؤَلِّهون مُدُنَهم وأبطالَهم وقياصرتهم ، حتى المجرداتِ البسيطةَ فكنت تُبْصِر عندهم معابدَ للفضيلة والوِفاق والعدل الخ .

و يبدو ذلك الأمرُ غريباً فى الوقت الحاضر ، وتَجِد ، مع ذلك ، وَجْهَ شَبَهٍ بينه و بين الرمزية المصرية .

وترى مبانِيَنا ونقودَنا وأوراقَنا الرسمية وزخارفَ معاهدنا العلمية مملوءةً بالمُجَسَّدات الرمزية ، وما انفَكَّت القوانينُ والعدالة والحرية تُعْرَض على شكل أشخاص ، وما كان الرجل القديم حين يُشَخِّص الوِفاق على شكل إلاهة ، ببعيدٍ كثيراً من الرجل المصريِّ الذى يُشَخِّص الجمهورية بامرأة ذاتِ عَمْرَة[1] حمراء أو الذى يُشَخِّص مدينةَ ستراسْبُرغ بتمثال ذى تيجان حيناً من الزمن .

ولم يكن تأليهُ القياصرة أمراً خاصًّا بالعالَم القديم ، فلم يُدْخَل سان لويس وحدَه إلى الزُّون[2] النصرانىِّ ، بل كان ، أيضاً ، أفرادُ الشعب وعِلِّيَّة القوم ،

---

(١) العمرة : كلّ شىء يجعل على الرأس من تاج وعمامة وغيرها — (٢) الزون : الموضع تجمع فيه الأصنام .

كنبوشوريه ، يَعُدُّون القـدرةَ الإلهية متقمصة فى جميع ملوكنا فى العهد السابق ، وما كان مطبوعاً على النقود ومنقوشاً على المبانى الرسمية يُذَكِّر الناس ، على الدوام ، بأن سلطان أولئك الملوك من الله ، ومن الطبيعى أن ينشأ شعورٌ قريب من العبادة تجاه أناس ذوى صلة وثيقة بالربوبية ، أفلم يكن بعض هؤلاء ذوى قُوًى مَعْزُوَّة إلى الألوهية نفسها كتلك القوة التى يُشْفَى بها بعض الأمراض باللَّمس ؟

والواقعُ أن الشعب فى كلِّ جيل يُؤَلِّه الأبطال ، فـكان جنود نابليون يَعُدُّون إمبراطورهم هـذا إلهاً لا يُغْلَب ، وأعان أُسْقُف كنيسة نُوتْرِدَام حلولَ القـدرة الربانية فيه (١) .

وما ذكرناه من مقابلة بين الفـكر القديم والفـكر الحديث يُثْبِت ، بأوجهٍ مختلفة ، درجةَ تماثل النفسية الدينية فى كلِّ زمن .

٥ — الفؤول والهواتف

كانت الآلهة فى الوثنية توافق ، أحياناً ، على مخاطبة الناس بهواتفَ يقوم بها أناس مشابهون للوسطاء المعاصرين ، وما كان الإغريق ليأتوا عملاً من غير استشارتهم فـكانوا يجيئون من الأماكن البعيدة ليسألوا كاهنةَ دِلْف المتكلمة باسم أُپُولون .

وكانت الثقة بالمراسيم التى تصدر على ذلك الوجه مطلقةً ، ومن ذلك أن الهاتف أَوْحَى بأن القيصر هادِرْيان سيموت قبل الأوان ما لم يَذْبح أحدُ أصدقائه نفسَه من

(١) لم يلبث نابليون نفسه أن اكتشف غلوا فى تأليهه ، فكتب إلى وزير بحريته فى سنة ١٨٠٨ يقول له :

« أعفيك من قياسى بالله ، أعتقد أنك لا تفكر فيما تكتب لما فيه من الإغراب فى أمرى وعدم الاحترام لشخصى » .

أجْله ، فقرَّب نديمُه المُفضَّلُ أنتينوس نفسَه منتحراً ، فحزن هادِرْيان شاكراً فأقام له، في الحال ، معبداً مُؤَسِّساً حوله مدينةً مهمة عاشت أربعةَ قرون .

وعند عدم الهواتف كان يُرْجَع إلى الفُؤُول لتعرُّف إرادة الآلهة ، فكان يوجد في رومة كليةٌ رسمية للفُؤُول لم تُلْغَ إلا بعد أن صارت النصرانيةُ دينَ الإمبراطورية .

ومن الواضح أن كانت الفُؤُول والهواتف وليدةَ نفسية دينية لِما كان من بقائها مُسمَّاة بأسماء مختلفة على الدوام ، فكنت ترى الرُّقْيا والسحرَ في القرون الوسطى ، وترى الموائدَ الدَّوَّارة ومناجاة الأرواح في الوقت الحاضر .

يُثْبِت ما تقدم مقدارَ هَيْمَنَة المعتقدات الدينية على الحياة في الزمن القديم ، ونعلَم أن مثل ذلك كان يَحْدُث في القرون الوسطى ، وما انفكَّ تاريخُنا يَخْضَع المؤثِّرات اللاهوتية مدةً تزيد على ألف سنة ، حقًّا أن العلم قد ضَيَّق دائرة علم الكلام بتضييقه ، بالتدريج ، نِطاقَ الميدان الذى افْتُرِضت سيطرة الآلهة عليه ، ولكن من غير أن يَقْضِيَ على النفسية الدينية ، فهذه النفسية تبدو الآن على صُوَر أخرى ، أى إنها تحولت إلى نفسية سياسية واجتماعية ، فترى الثقة بالصِّيَغ والآمالَ تستحوذان على النفوس كما كانتا ، وما احتياجُ الإنسان إلى المعتقدات لتغذية حياته الباطنية إلا كاحتياج المَعِدَة إلى الغذاء لحِفْظ الحياة الجُثْمانية ، وتاريخُ الأديان المُمْتِعُ هو الذى أبْدَى هذه الظاهرة النفسية الأساسية .

obeikandl.com

الفصل الرابع

الأديان الكبرى التركيبية

النصرانية

---

١ . ظهور النصرانية — ٢ . تحولات النصرانية — ٣ . انتشار النصرانية بين الطبقات الشعبية — ٤ . انتشار النصرانية بين المثقفين — ٥ . النتائج غير المنتظرة لانتحال النصرانية .

---

١ — ظهور النصرانية

كانت الدِّيانات القديمة ، فى بدء الأمر ، من العبادات المحلية التى لا تَهْدِف إلى الانتشار أبداً ، فكان للشعب آلهتُهُ كما كانت له لغتُه وقوانينه وعاداته وفنونه ، وكان من التدنيس للآلهة أن يَعبُدُها الأجانب ، والفاتحُ وحدَه هو الذى كان يمكنه أن يَسْمَح بذلك .

وَحَّدَت الدولة الرومانية العالَمَ القديم تقريباً وسَهَّلَت المواصلاتِ بذلك فظهرت دياناتٌ ذاتُ مناحٍ عامة ، والنصرانيةُ والإسلام هما أشهر هذه الدِّيانات .

وسنقتصر على البحث فى النصرانية ، ويكفى هذا البحث لإثبات تكوين المعتقدات الكبرى التركيبية وتطورِها ، فتاريخ هذا البحث يُعَلِّمُنا كيف يظهر الدين ويتحول وينتشر وكيف يبتلع المعتقداتِ السابقةَ ولماذا يُؤثِّر فى النفوس .

وتَطَوُّر النصرانية يساعدنا ، أيضاً ، على تسويغ تلك السُّنَّة المذكورةِ فى فصل

سابق والقائلة بأن الدّيانة التى يُعلّمُها علمُ اللاّهوت تختلف عن الدّيانة التى تزاولها الجموع على الدوام ، وذلك التطور يُوضح تلك السُّنّة الأساسية القائلة إن ظواهر النفسية الدينية واحدةٌ لدى جميع الأمم مع ما بين معتقداتها من اختلاف بيّن ، فالإنسانُ ، سواء عليه أقدّسَ لايزِس أم لمريمَ العذراء ، يعبدُهما على السّواء ، والإنسانُ عَبَد ، كذلك ، آلهةَ الزّون الإغريقىّ الرومانىّ أو قِدّيسى ملكوت السماء النصرانى غيرَ مُفرّقٍ بينهما كثيراً ، والإنسانُ قد عَزا فضائلَ متماثلةً إلى أوثانه ، سواء أكانت هذه الأوثان من ذخائر القِدّيسين أم من التعاويذ والتمائم .

وعلى ما تراه من معرفتنا بما فيه الكفاية لحياة كثير من مؤسسى الأديان ، كحياة محمد مثلاً ، ترى حياة مؤسس النصرانية مجهولةً تقريباً ، ولا تبحَثْ عن حياة مؤسس النصرانية فى الأناجيل كما صُنِع ذلك زمناً طويلاً ، وكما عدَل العلم عن اعتقاد إمكانها فى الوقت الحاضر ، فهذه الأناجيل ، وأقدمُها إنجيل مرقص الذى كُتِب بعد وفاة يسوعَ بنصف قرن على الأقل ، هى مجموعة من الأوهام والذّكريات غيرِ المُحقّقة التى بَسَطها خيالُ مؤلفيها التّقىّ .

ورسائلُ القِدّيس بولس هى ، كما يبدو ، أقلُّ الوثائق عدمَ صحةٍ فى تمثل أزمنة النصرانية الأولى ، ولكن بولسَ إذ لم يَعْرِف يسوعَ لم يَسْتطِع أن يتكلم عنه إلا سَيْرًا مع الغَمْغمات والخيال .

وعلى ما تراه فى تلك المصادر من نقص فإننا نَسْتَشِفُّ منها ، على الأقل ، ما كان يدور فى زمن يسوعَ من المبادئ ، ونَعْلَم منها أن هذا الإله المُقْبِلَ لم يَعُدّ نفسه إلهاً قط ، ولا مؤسساً لدين جديد .

قال الأستاذ غِنيبِر : « لو قيل للحواريين الاثنى عشر إن الله تَجسَّد فى يسوعَ

ما أدركوا هذه الفضيحةَ القطيعة ولرفعوا أصواتهم مُحتَجِّين ... فما كان المبدأ القائل بالبُنُوَّة الإلهية لِيَبْدُوَ لليهوديِّ إلا تجديفاً شنيعاً » .

وإنما كان يسوع معتقداً أنه نَبِيٌّ خَلَفَ لِمَنْ ظَهَرَ قبله من الأنبياء فتقوم دعواه الوحيدة على القول باقتراب ملكوت الربِّ الذى حَدَّث اليهودُ عنه منذ زمن طويل ، وما كانت هذه البُشْرَى الطيبة لتَخُصَّ غيرَ بنى إسرائيل مع ذلك .

ويُتَوَفَّى يسوع ويحاول تلاميذه نشر نبوءاته وأدبه فلم يُوَفَّقوا إلاَّ لجمعٍ قليل من الأنصار فى بدء الأمر ، فما كانت ذكرى يسوعَ لتَبْقَى بعد موته طويلَ زمنٍ .

والواقعُ هو غير ذلك تماماً كما هو معلوم ، فقد أنقذ خيال المتهوس القِدِّيس بولس اسمَ يسوعَ من النسيان وأحاطه بالمجد الخالد .

كان ما اتَّفَقَ للقِدِّيس بولس من التَّجَلِّى المعروف فى طريق دِمَشْقَ نقطةَ التحول الحقيقيةَ فى النصرانية ، وكان القديس بولس مفطوراً على فَرْط الخيال وكانت نفسُه مملوءةً بذِكْريات الفلسفة اليونانية والأديان الشرقية فأَسَّس باسم يسوعَ ديناً لا يفقهه يسوع لو كان حيًّا .

ولم يفكر القِدِّيس بولسُ فى جعل يسوعَ إلهاً مع ذلك ، والقديسُ بولس كان يَعُدُّ يسوعَ رسولاً لله مُفَوَّضاً إليه أن يَدْعُوَ الناس إلى الإيمان بالحياة الأبدية وأن يشترِىَ خطاياهم بموته .

ولاشىء يَدُلُّ على أن الناس عَدُّوا يسوعَ إلهاً فى القرن الأول من النصرانية ،

ولم ينتشر الإيمان بألوهيته إلاّ في أوائل القرن الثاني بين الجماعات النصرانية .

و بطوءُ كذلك مما يُثير الدَّهَش لِما نعْلَمه من السهولة التي كان الناس في ذلك الزمن يُؤَلِّهون بها أعاظم الرجال كالقياصرة مثلاً .

هنالك أسبابٌ كثيرة أدّت إلى تأخر ذلك التأليه ، ومنها أن اليهود الذين اعتنقوا النصرانية لم يريدوا أن يَعْدِلوا عن يَهْوَه الإلهِ الجبّار الغيور ، واليهودُ بعد أن عَدُّوا يسوعَ رسولاً لله جعلوا منه ابناً لله في بدء الأمر ، ثم وحَّدُوه بالله ، وقد حال الإيمان الأعمى في القرون الأولى دون تبيُّنِهم الهُوَّةَ التي تفصِل بين يَهْوَه الجبّار ويسوعَ الحليم ، فالمتناقضات العقلية لاتبدو للمنطق الدينيّ .

وكانت جهود القديسِ بولسَ تَهْدِف إلى تجريد النصرانية من عناصرها اليهودية على قَدَر الاستطاعة ، فتجعلُ من النصرانية ديناً عامّاً ، وهذا ما تَمّ للنصرانية ، ولكن ببطوءٍ كبير لم يَعْرِفه الإسلام مثلاً .

ولنبحث الآن في تبنِّي النصرانية المعتقدات السابقة وتطورِها مع الأجيال ، ثم ندرس أسباب انتشارها .

٣ — تحوُّلاتُ النصرانية

نُسَوِّغ إطلاقنا اسمَ الدِّيانة التركيبية على النصرانية لِما كان من تبنِّي النصرانية لمعتقداتٍ سابقة كانت تزْعُم انفصالها عنها على الخصوص .

كان على مذهب يسوع ، منذ خروجه من عالَم بلاد اليهودية الضَّيِّقِ ليَنْفُذَ في الحياة الإغريقية الرومانية ، أن يلائم أفكار البيئات الجديدة واحتياجاتها ومشاعرَها بحكم الضرورة .

obeikandi.com

وقد وُفِّق لذلك بما استعاره من عناصر الفلسفة اليونانية والدِّيانات الشرقيـة التى كانت ذاتَ حُظْوَة كبيرة فى ذلك الحين .

والعِلْمُ الحديث قد أبان بسهولةٍ ما أُنْـكِر زمناً طويلاً من امتزاج المؤثِّرات الأجنبية ذلك .

قال مسيو غِنيبِر : « وَجَدَت النصرانيـة عنصراً لها فى الوثنية والأُولَنْبِيَّة والأُورفية والدِّيانات الشرقية والمذاهب الفلسفية ... فغَدَت ديانةً حقًّا ، غَدَتْ دِيانةً أكملَ من غيرها لِما كان من اقتباسها أحسنَ ما فى غيرها » .

وما انفـكَّت النصرانية فى قرونها الخمسة الأولى تتحول بتلك الإضافات فأضحت مع الزمن مزيجاً من جميع المعتقدات الشرقية ، ولا سيما معتقداتِ مصرَ وفارسَ التى كانت كثيرة الانتشار فى العالم الوثنىِّ فـكان لإيزِس ومِيثْرَا عِدَّةُ أَتْبَاعٍ فيه على الخصوص ، ومُعْظَمُ ما تبصره فى النصرانية من الطقوس والشعائر والرموز والـكفاح بين الخير والشرِّ هو من دِيانة مِيثْرَا .

قال مسيو أ . رينالك : « أَدَّتْ قِصَّة إرضاع إيزِس لهوروسَ إلى إبداع قصة العذراء وابنها وأدت قصةُ طعنِ هوروسَ للتِّمساح إلى إبداع قصة صَرْع القديس جورج والقديس ميشيل للتِّنِّين ، وليس بمجهول أن تأثير مصرَ فى النصرانية لم يَقِف عند هذا الحدِّ ... فقد وُسِمَت مصرُ النصرانية حتى فيما قالت به من جُرْن الماء المُقَدَّس ونواقيسِ القداديس ومجالسِ جهنم مع شياطينها والدعاء للمَوْتَى » .

وبلغت النصرانيـة فى تطعيم شعائرها بمثل تلك الاقتباسات الـكثيرة ما ظَنَّ

معه آباء الكنيسة ، الجاهلون لتلك الإضافات التدريجية ، أن ديانة ميثرا هى تحريف شيطانى للنصرانية مع أن العكس هو الصحيح .

والنصرانية ، لتلك الإضافات المتعاقبة ، تطلبت عدة قرون ليتم تكوينها ، حتى إنه يمكن أن يقال إن النصرانية ظلت عاطلة من أى عرض رسمى إلى أوائل القرون الوسطى ، فبقيت قرارات المؤتمرات الدينية غير مؤثرة لتناقضها .

وإذ لم يكن لأسقف رومة ما يفضل به زملاءه لم تستطع أية سلطة مركزية أن تحدد ريب علماء اللاهوت ، ولم يفكر أحد آنئذ فى عظمة نفسه .

ومن الطبيعى أن يتطور الدين النصرانى بحسب نفسية الأمم التى انتحلته ، وظل هذا الدين عدة قرون مزيجاً من عناصر متباينة أشد التباين ، وما بذله علماء اللاهوت من الجهود لتعيين عقائده ذهب أدراج الرياح ، وما فتئت الانفصالات والإلحادات تزيد ، وما استطاع مؤتمر نيقية (إزنيق) الدينى أن يصل فى سنة ٣٢٥ إلى صوغ النصرانية صوغاً واضحاً ، وهذا المؤتمر لم يجتمع ، مع ذلك ، إلا ليناهض أريوس الذى أنكر كون الابن إلهاً كالأب ، وهذا المؤتمر قد انتهى ، مع ذلك ، إلى النتيجة المهمة القائلة بتأليه يسوع .

ولا تجد كالنصرانية ديناً لم يتخلص من مشاحنات علماء اللاهوت ، ومن المحتمل أن كان هذا الدين يتحلل تجاه هذه المماحكات لو لم يجد دعامة متينة فى إيمان العوام البعيدين منها .

ولم تثبت العقائد النصرانية ثباتاً حقيقياً إلا بعد أن سلم بسلطان البابا تسليماً نهائياً فى القرن الخامس عشر .

أَجَلْ ، حاول أساقفة رومة فى القرن العاشر انتحالَ حَقِّ السيطرة على الكنيسة ولكنهم لم يُوَفَّقوا لهذا إلاَّ فى أحوال شاذة ، والبابا إينُوسان الثالث وحدَه ، تقريباً ، هو الذى أباح لنفسه حِرْمَ الملوك .

والحَمْلَة الصليبية الأولى هى التى جعلت من أولئك الأساقفة رؤساءَ للنصرانية إلى حدٍّ ما ، ولم يخضع الملوك لمثل هذه الوِصاية طويلَ زمنٍ مع ذلك ، وما كانت المؤتمرات الدينية لتقول بهذا على إطلاقه ، وقاوم مؤتمر بالَ أوامرَ البابا أُوجِينَ الرابع فى القرن الخامسَ عشرَ فأعان هذا البابا خَلَّه ، فهنالك خَلَع ذلك المؤتمرُ هذا البابا مُتَوِّجاً آخرَ فى مكانه .

ونال البابوات الملوكُ فى نهاية الأمر ما كانوا يَحْلُمون به منذ زمن طويل من التفوق ، فكان هذا مصيبةً على الكنيسة ، فقد أسفرت مزاعم البابوات وسوء أعمال الإكليروس عن نشوب ثورة الإصلاح الدينىِّ وعن اشتعال الحروب الدينيةِ التى خَرَّبَت أوربة مدةَ خمسين سنة .

وما كان يأتى به رجال الدين من الخصومات المتصلة ومن أفانين الطمع ومن الازدراء الشامل كَفَى لتسويغ قول لُوثِرَ وكالْفِين بنَبْذ سلطان البابا وبطرحِ العقائد المشكوك فيها وبالوقوف عند حدِّ نصوص الكتاب المقدس .

وثورةُ الإصلاح الدينىِّ بعد أن كانت شُؤْماً على الكنيسة بَدَت خيراً لها لما اضْطُرَّت به الكنيسة إلى تحسين حالها وتوحيد أمرها ، فلمَّا عُقِد مؤتمر ترَانْتَ الدينىُّ فى سنة ١٥٥٠ اعْتَرَف بسيطرة البابا الشاملة وقرَّر العقائدَ فى أدقِّ جُزْئِيَّاتها ، فتألف من مقررات هذا المؤتمر دستور الكنيسة منذ ذلك التاريخ .

ومن عدم الحذر الخطر ، بل من المستحيل ، أن يُزْعم ثباتُ أيّ دستور دينيّ أو مدنيّ وأن يُحَال بذلك دون تحوُّله ، فلا يَعْني جمودُ العقائد جمودَ الأفكار .

إذنْ، كان من العبث تصور البابوات والمؤتمرات الدينية ثباتَ الإيمان النصرانيّ إلى الأبد ، فقد ابتعدت الروح البشرية عن هذا الإيمان شيئاً فشيئاً بما اتفق لها من الاكتشافات .

٣ — انتشارُ النصرانية بين الطبقات الشعبية

بَيَّنَّا كيف نشأت النصرانيــة وكيف تحوَّلَت ، فبَقِيَ علينا أن نشير إلى الصورة التي انتشرت بها ، ولم يُعْنَ المؤرخون بهذه المسألة المهمة مع أنها ظاهرةٌ نفسية عظيمة جِدًّا .

وفى كتابٍ سابق أسهبتُ في بيان انتشار الآراء والمعتقدات مستقلةً عن كلِّ عامل عقليّ ، أي بفعل التــكرار والتوكيد والعدوى والنفوذ ، ولا أعود إلى هــذا الموضوع فأقتصر على ذكر بعض الأسباب التي سَهَّلَت أمر انتشار النصرانية .

لو ظَهَرَت النصرانيــة بما عليه اليوم من العقائد الغريبة واللاهوتية المُعَقَّدة ما أصابت غيرَ نجاح زهيــد على الأرجح ، فالجموعُ تعيش بالآمال ، لا بمبادىء ما بعد الطبيعة .

جاء الدين النصرانيُّ الجديد بآمال واسعة ، فقــد وَعَدَ الضعفاء والمحرومين واليائسين من هذه الحياة الدنيا بجنةٍ ذاتِ نعيم أبديّ حيث يتساوى الفقير والغنيُّ وحيث لا ينال أقوياء الدنيا أكثرَ مما يناله أحقر البائسين من الامتيازات ، ولا غَرْوَ ،

فالاشتراكية تهيمن على الجموع مع أنها دون النصرانية وعوداً فى الوقت الحاضر ، ولا غَرْوَ، فرُؤيا السعادة تجتذب النفوس على الدوام.

وتَمّ النصر للدين النصرانىّ منذ لاحت تلك الحياة السعيدة أمراً يقينيًّا ، فتحوّل العالَم .

ومن الممكن أن يُلاحَظ أن العيش فى حياة آخرة مشتملة على جهنمَ والجنةِ مما قال به أكثرُ الأديان القديمة ، كأديان مصرَ وفارسَ على الخصوص ، ولكن هذا كان على وجه مُبْهَم ، ومما ذكرناه أن مملكة الأموات كانت تبدو فى زمن أوميرسَ مقاما غيرَ مرغوب فيه كثيراً .

والنصرانيةُ ، حين فتحت للنفوس أملَ السعادة الأبدية ، كان أولَ ما أسفرت عنه تحويلُ هَدَف الحياة ، فبينما كانت الحياة الدنيوية أهمّ مايُعْنَى به الإغريقُ والرومان صارت الحياةُ الآخرة الغايةَ الوحيدة لآمال النصرانىّ ، والنصرانىُّ إذ كان يَعُدُّ الدنيا مَمَرًّا للحياة السماوية مَلَكَت السعادةُ الأبدية أفكارَه ، والنصرانىُّ ، لكى ينالَ هذه السعادة ويجتنبَ جهنمَ ، رَضِىَ بأسوأ زُهْدٍ : رَضِىَ بالفقر وبالرّهْبانِيّة ، وبالشهادة أيضاً .

وليست نصرانيةُ القرون الوسطى عِنْوَانَ الوَحْدة لدى علماء اللاهوت ، ووَجَدَت هذه النصرانيةُ ، مانَشَدَتْه من الوَحْدة فى نفوس الشعب التى اهتدت بمنارتين عظيمتين : بالأمل فى السماء وبالخوف من جهنم .

وإذا عَدَوْتَ ذينك الأمرين الجوهريين رأيتَ الشعب قد حافظ على نفسيته

الوثنية ، فأسماء الآلهة المُسِنَّة وحدَها هى التى تَغيَّرت ، فالشعبُ أخذ يَعبُد الثالوثَ الجديد بعد أن كان يَعبُد ثالوثَ الكابيتولَ المؤلفَ من جُوبيتر وجُونونَ ومِنيرفا ، وحلَّ القِدِّيسُون محلَّ جميع الآلهة الثانوية القديمة ، وتحولت حيواناتُ الغابات وعرائسُها إلى غيلان وشياطين ، وقام السَّحَرَة مقامَ العَرَّافين .

وينطوى كلُّ دين على وجهين كما قلنا : ينطوى على مايقول به علماء اللاهوت والمُثَقَّفون من المبادىء وعلى مايعتنقه الشعب ، ولاينتشر الدين ، إذَنْ ، بجهاز واحد فى مختلف طبقات المجتمع .

أَجَلْ ، يكون للعَدْوَى النفسية والتلقين بالغُ الأثر فى كلتا الحالتين ، بَيْدَ أن وسائلَ عملٍ كهذه لاتكفى لإقناع الطبقات المُثَقَّفة .

رأَينَا الوجه الذى انتشرت به النصرانية بين الجماهير ، وسنحاول الآن بيان الوجه الذى انتشرت به فى طبقات العالَم الرومانىِّ المُنَوَّرة .

٤ — انتشارُ النصرانيـة بين المُثَقَّفِين

يَسْهُل إيضاح ذلك الانتشار عند النظر إلى الزمن الذى استحوذ فيه الدين النصرانىُّ على الشعب والجيش فأبصر القياصرةُ من السياسة الرشيدة أن يجعلوه ديناً رسميًّا ، غير أن النصرانية كانت منتشرة بين أبناء المجتمع المُثَقَّف قبل ذلك الاشتراع ، فما هى عِلَلُ انتشاره هذا ؟

لا يمكن إدراكُ العِلَل بجَلاَء إلاَّ إذا علمنا قبل كلِّ شىء أن مايراه الرجل

المصرىُّ من الخطر فى اعتناق دين جديد كان أمراً غير ذى بال لدى الرومانىِّ ، فالرومانىُّ كان يَسْهُل عليه، بالحقيقة ، أن يُضيف إلى زُونه مايراه من الآلهة من غير أن يُغيِّر دينه ، وكان القياصرة أنفسُهم يستعملون خِيارَهم فى ذلك فشاد هَادِرْيان معابدَ لجميع الآلهة ، وكان أَلِكْسَنْدِر سيفير يَمْلِك فى معبده صُوَراً لأهمِّ الآلهة ، ومنها صورةُ يسوع ، ووجَدَتْ طائفة من الآلهة الجديدة مكاناً لها فى الأُولِمْپيا ، الآهلةِ بالآلهة ، بعد الفتح الرومانى ، وكانت دِيانات مصرَ وفارسَ تنتشر بالتدريج فكنت ترى فيها آلهةً ذات مَناحٍ توحيدية ، ومن هذه الآلهة نذكر ، على الخصوص، مِيثْرا ، أى إلٰهَ الشمس لدى الفرس الذى بَدَا كثيرٌ من القياصرة عُبَّاداً خُدَّاماً له .

ولكن زَعْمَ النصارى أن ربَّهم هو إلٰهُ السماء الوحيدُ كان يجعل كلَّ تسليم به أمراً صَعْباً ، فكان لابدَّ لبلوغ ذلك من التمهيد بتطورٍ نفسىٍّ مؤدٍّ إلى عَدِّ جميع الآلهة القديمة صُوَراً مختلفةً لألوهية واحدة ، أى إلى الفكرة التى كانت سائدة لكثير من دِيانات الشرق منذ زمن طويل .

عَمَّ ذلك الأمر منذ أوائل التاريخ الميلادىِّ مقداراً فمقداراً ، فتَحَوَّل الإشراك الشامل إلى التوحيد النظرىِّ بالتدريج ، فكان إلٰه النصارى تكثيفاً لذلك .

والحقُّ أن النصرانية لم تأت المُثَقِّفين بشىء جديد ، فهى كانت تقول ، من جهةٍ ، بإلٰهٍ واحد أخذ أمره يَذِيع درجةً درجة ، وهى كانت حافلةً ، من جهةٍ أخرى ، بما قُبِل به من العناصر الشرقية منذ طويلِ زمنٍ كالشعائر والطُّقُوس .

وتصلب النصرانية الشديدُ من أهمِّ العوامل فى انتصارها أيضاً ، فلو أُضيف إلهٌ جديد إلى الآلهة الكثيرة الأخرى لابتلعت العباداتُ القديمة هذا الإلهَ ولفَدَا أمره من البِدَع كما حدث للبُدَّهِيَّة (البوذية) ، والنصرانيةُ إذ عَدَّت إلهَها وحيداً ونعتَت الآلهةَ الأخرى بالشياطين تعذَّر تساهلها مع هذه الآلهة .

أضِفْ إلى ما تقدَّم ما اتَّفق لأنصار النصرانية من الإيمان القوىِّ الذى سَهُل عليهم أن يقاتلوا به آلهةً كان يُدافَع عنها بإيمان ضعيف .

٥ — النتائجُ غيرُ المنتظرة لانتحال النصرانية

ترَى من الملاحظات السابقة أن الشعب أقبل على النصرانية بحماسةٍ ، وأن المُثقَّفين نظَرُوا إليها بعين الإغضاء والتسامح ، وأن القياصرة انتحلوها فى نهاية الأمر لِغَرَض سياسىٍّ مَحْض .

ولم يُبْصِر أحدٌ ، آنئذٍ ، مالذلك الانتحال من النتائج البعيدة ، فكان يَلُوح أن القول بإلهٍ يزيد على الآلهة القديمة الكثيرة التى رُضِىَ بها فى غُضُون القرون ليس من شأنه أن يُغيِّر شيئاً فى الحياة الاجتماعية وفى الحضارة .

وعكسُ ذلك ماوَقَع بسرعة ، فإلهُ النصارى ، إذ صار عاطلاً من مُنافِس سوى الشياطين ذوى القدرة المشكوك فيها ، لم يَلْبَث أن قِيلَ بسيطرته على مختلف شؤون الكَوْن كما يسيطر على الحياة الدينية ، ولم يُتِمَّ عَمَلُه أن امتدَّ إلى عناصر الجهاز الاجتماعىِّ فاستلهمته الفنون والآداب والفلسفة فتَوارت الحضارةُ الوثنية تماماً ، فلم

تستطع الروح البشرية أن تتحرك ، عِدَّةَ قرونٍ ، إلاّ داخلَ النِّطاق الضَّيِّق الذى حَدَّده علم اللاهوت النصرانىُّ .

أَجَلْ ، إن النصرانية لم تكن لتمارسَ مثل ذلك النفوذ أيام كان لدى الرومان جهازٌ اجتماعىٌّ متين يتعذَّر تحويله ، ولكن النصرانية ، حين تَمَّ لها النصر ، كان العالَم الهَرِمُ يتداعى يومًا بعد يوم فيَدْنُو من أَجَله المحتوم ، وقد أبصر غُزَاة البرابرة فى ذلك العالَم الرومانىِّ حضارةً تفوق مزاجَهم النفسىَّ بمراحلَ فلم يَقْدِروا على هضمها فوَجَدوا فى النصرانية من عناصر الثبات مالم يكن لديهم .

كان انتحال أولئك البرابرة للنصرانية ذا خيرٍ عَمِيم لهم ، فكان له من الشأن فى تطورهم مالا يَتَّفق لأية حضارةٍ رفيعة ، فما كان لغير الوعيد بجهنمَ والوعدِ بالسماء ماتُزْجَر به بعضَ الزجرِ تلك الأخلاطُ التى تسيطر اندفاعاتُها الغريزية عليها وماتتحول به إلى مجتمعات ثابتة .

ومن نتائج امتزاج النظام الدينىِّ بالنظام السياسىِّ أن زادت قوة الدين وقوة الدولة معاً ، فقد اتفقت السلطتان الزمنيةُ والروحية عِدَّةَ قرون مع اصطراعهما أحياناً ، ثم عَدَّ القياصرةُ والملوك أنفسَهم وكلاءَ الله فى نهاية الأمر .

دام سلطان النصرانية أَلْفَ سنةٍ فاستطاعت أن تُمَدِّنَ البرابرةَ فى أثنائها قليلاً ، فأصبح هؤلاء البرابرة قادرين على فَهْم العالَم القديم المَنْسِىِّ منذ زمن طويل ، فأُطْلق على ظهور ذلك العالَم ثانيةً اسمُ دَوْر النهضة .

بَدَا ذلك البَعْثُ باهراً ، فقد أعرض الناس ، أمام النفائس التى ظهرت لهم ،

عن المسائل اللاهوتية وعن الوعيد بنار جهنم فأُعجِبوا بالآلهة والإلاهات التى أُخرِجت من مَرْقدها وسَحَرَتْهم أساطيرُها العجيبة .

فهنالك صارت القرونُ الخالية أعظمَ مُلْهِم ، فخضع لحكمها المتفنّنون والأدباء والفلاسفة ، ومما يستوقف نظر من يزور رومة أن يُبْصِرَ أن البابوات ، الذين هم أشدُّ المدافعين عن عِلْمِ اللاهوت النصرانيّ ، كانوا يطلبون من رجال الفنّ أن يُصوِّرُوا أساطير الوثنية ، وبجانب إلهامات العالَم القديم تلك كانت تبدو على جانب كبيرٍ من الشُّحُوب وجوهُ القِدِّيسين والشهداء والمسيح وأهلِ جهنمَ الضيقة ، ومن هذه الحياة العابسة المحزنة التى فَرَضَها علم اللاهوت النصرانىُّ تحرَّرَ الإنسان فى نهاية الأمر ، فزُيِّنَتْ جُدُرُ قصور رومة والڤاتيكان بولادة ڤينوس وبقصّة پسيشه الحسناء وغَرَامِيّات جُوپيتر ، وعادت الآلهة التى أغْوَت البشرية فى فَجْرِها تَسْحَرُها فى عمرها الناضج ، وعَلِمَت البشرية أن تعيش مع الطبيعة ، لا خلافاً للطبيعة ، وإذا كانت هذه الصَّوْلَة لم تستمرَّ فلِوَضْعِ الإصلاح الدينيِّ حدًّا لها على وجه غير مباشر ، ولولا نفوذُ هذا الإصلاح لرَجَعَ العالَم إلى الوثنية على ما يحتمل .

ولم يتساوق عصر النهضة وبعثُ العالَم القديم فقط ، بل تساوق ، أيضاً ، هو وازدهارُ العلوم التَّجْرِيبيَّة التى وجب أن تُغَيِّرَ اتجاه الفكر ، فقد رأى الإنسان أنه أصبح من الضروريِّ أن يستبدل بضروب اليقين التى سيرته مدةَ خمسةَ عشرَ قرناً أموراً أُخرى .

ونحن ، إذ نُكَثِّف فى بضع صَفَحَاتٍ قرونَ التاريخ الدينيِّ الطويلةَ ، لم نَسْتَطِع غير الإشارة إلى خطوط الصورة المتحركة الكبيرة التى تتألف النصرانية من مجموعها ،

فهذه الخطوط الكبيرة تكفي لِتُثْبت أن هذه الدِّيانة التى سيطرت على النفوس زمناً طويلاً ليست حادثةً ظهرت بغتة ، بل هى مزيج من الأفكار الجديدة والعقائد السابقة ، وأنها ، وقد اعتنقها الشعب فى بدء الأمر بما بذلته له من الوعود ، لم تَصِل إلى طبقات المجتمع الراقية إلا بعد مرور عِدَّة قرون .

ومع ذلك وجب ، لانتصار تلك الدِّيانة الجديدة ، اجتماعُ أحوالٍ لم تَتَلَاقَ سوى ثلاثِ مراتٍ أو أربعِ مَرَّاتٍ فى التاريخ ، ولم يكن هنالك مَعْدِلٌ عن اجتماع تلك الأحوال لتحقيق نصرها الهائل ، وكان للناس بانتصار النصرانية توجيهٌ لذهن الناس زمناً طويلاً فاعتقد الناسُ بها حِيَازَتَهم لحقائقَ خالدة .

obeikandl.com

الفصل الخامس

كيف تنحل الديانات الكبرى

١ . الإلحادات والانفصالات ـ ٢ . تطور الآلهة ـ ٣ . تطور النصرانية نحو حرية الفكر فى الكنائس البروتستانية ـ ٤ . محاولات تحويل الكاثوليكية ، المذهب العصرى ـ ٥ . النصرانية من صنع الجموع

١ ـ الإلحادات والانفصالات

جميعُ الأديان الكبرى القائلةُ بالتوحيد ، كالإسلام والنصرانية ، والبُدَّهِيَّةُ (البوذية) على الخصوص ، حافلةٌ بالانفصالات والإلحادات التى كانت عاملَ تطورٍ لها أو عاملَ أفولٍ لها فى بعض الأحيان .

ويجب أن يُبْحَث عن العِلَّةِ الرئيسة لذلك فى اختلاف الأمزجة النفسية وفى الضرورات الاجتماعية لدى المؤمنين الخاضعين لدينٍ واحد وفى الاحتياج إلى البَرْهَنة .

ويُعْتَنَقُ الدين فى بدء الأمر جملةً واحدة بفعل العَدْوَى النفسية من غير أن يتدخل أىُّ نفوذ دينىّ فى ذلك ، ولكن انتحال دينٍ لا يَعْنِى إضاعةَ الرغبة فى البَرْهَنَة، فيَجِدُ المؤمن ، على الدوام ، ناحيةً ثانوية تتطلب تفسيراتٍ جديدةً ، والمؤمنُ إذا ما كان حائزاً مزاجَ رسولٍ أذاع هذه التفسيراتِ فظهر فى الحال انفصالٌ أو إلحاد .

والانفصالاتُ والإلحاداتُ كثيرةٌ في تاريخ النصرانية ، وهي تدور حَوْلَ موضوعاتٍ متنوعة كثيراً ، فهل مريمُ أمُّ يسوعَ فقط ، لا أمُّ الله ، كما ادَّعى نسطور؟ وكيف تُفسَّر دَيْنونَةُ النوع البشريِّ بمعصية آدم وحدَه ؟ الخ .

وكان من نتائج مُعْظم هـذه الانفصالات والإلحادات حدوثُ ملاحمَ واسعةِ النِّطاق ، ومن ذلك أن البابا إينوسان الثالث أراد أن يقنع الـكاتار (المُطَهَّرين) بأن إله العهد القديم ليس بالشيطان فأرسل إليهم في سنة ١٢٠٨ حَمْلَةً صليبية أسفرت عن تخريب جَنُوب فرنسة وتدميرِ أنضرِ المُدُن كمدينة بِيزيه ومدينة قَرْقَشُونَة على الخصوص ، ووجب ، أيضاً ، قتلُ ألوفٍ من الناس لدلالة المؤمنين على أن مصدر روح القُدُس هو الأبُ والابنُ معاً ، لا الأبُ وحـدَه ، وأنه لا ينبغي أن تقوم المَعْمُودِيَّةُ على الغَطْس الـكُلِّيِّ ، وأن تَناوُلَ القربان يتطلب خُبْزاً فَطِيراً ، لا خبزاً خَمِيراً ، وأن التصليب يجب أن يكون بإصْبَع واحدة لا بإصبعين الخ .

وكانت النفوس تُقْتَل بنسبة خَطَر موضوعات الجِدال ، فلما أعْلَن مُنْـكِرُو وجوبِ تَعْميد الأطفال ضرورةَ تعميد الأولاد مُجَدَّداً بعد البلوغ بدا هذا الادعاء ، الذي يلوح لنا تَفَهُهُ في الوقت الحاضر ، أمراً هائلاً فأدَّى إلى حرب ضَرُوس أُبِيدَ فيها ١٥٠٠٠٠ خارجيّ بلا رحمة .

ولم تـكن الحياة البشرية ذاتَ قيمةٍ لدى حُماة الإيمان ، ولم تـكن الضَّراوة عنـدهم سوى فضـيلة تستلزم المـكافأة ، والحقُّ أن المؤمنين الحقيقيين حاقدون على الدوام ، فحينما حرّق تُرْكُمادَا ستة آلاف شخصٍ طلب قَلَنْسُوَةَ كردينال تقديراً لحميّته .

وتكون الانفصالاتُ والإلحادات آيةَ الوَجْدِ والنَّوْبات الحادة فى الغالب ، ومن هذا ما كان من إلحاد پروتستان سِيڤِين الذين ألْهَبَهم إيمانهم فى عهد لويس الرابعَ عشرَ فقاوموا ثلاثة مرِيشالاتٍ وعِدَّةَ فيالقَ باسلةٍ مدةَ سنتين .

وأوجب مذهب التَّجرُّد ومذهبُ النِّعْمَة والاختصاص ومذهبُ القلب المُقدَّس الخ ، حدوثَ نَوْباتٍ من ذلك الطِّراز ، والممسوسة مارى ألاَ كوك هى التى أسَّسَت مذهبَ القلب المقدس ، فقد رأت فى المنام أن يسوع أعطاها قلبَه آخذاً قلبَها عِوَضاً منه ، وتُقيم الكنيسة عيداً ، من فَوْرِها ، تخليداً لهذا الحادث ، وتَحْتَفِل ، فى سنة ١٨٦٤ ، صاحبةَ الرؤيا فى صَفِّ الطُوباوِيِّين ، وليس مما يُنْسَى قرارُ مجلس النواب المُتَّزِن ، فى سنة ١٨٧١ ، بإقامة كنيسةٍ فى مُونمارْتِر ليُعْبَد فيها القلبُ المقدس ، وهذا الأثر العظيم الذى يهيمن على المدينة الكبرى (باريسَ) يساعد الأجيال المقبلة على تَبَيُّن شأن ذوى الهَوَس فى التاريخ .

ونَوْباتُ تَصَوُّفٍ كتلك مما يُشاهَد فى بلاد المسلمين والكاثوليك والپروتستان على السَّوَاء ، ولدى الپروتستان تَظْهَر ، على الدوام ، رُدُودُ فعلٍ تُعْرَف بالانتباهات الدينية ، مصدرُها جديدُ المذاهب .

وفى غُضُونِ كتابٍ آخرَ بَيَّنْتُ تأثيرَ نَوْباتِ التصوف فى الثَّوْرَات والمعتقدات السياسية .

ولقد أصاب دانيالُ برتِلُو حيث قال : « يلوح مؤتمر نيقية (إزْنِيق) الدينىُّ بعيداً منا ، أفليس من أشباح الماضى ما كان بين الآريين والنساطرة من خِصام وما أُنشِئَ من المواقد فى سبيل كلمةٍ أو شَوْلَةٍ [1] فى الكتاب المقدس ؟ اقْرَأُوا

(١) الشولة : علامة الوقف الناقص .

أخبار المجادلات شِبْهِ اللاهوتية بين أنصار الإسْپيرانتو والإيدُو ومحاضرَ مؤتمراتِهم وأضاليلَ بابا وارسو وحِرْمَ الأرثوذوكس ، وأنعِموا النظر فى حماسة الملاحدة وفيما بين تلك المذاهب المتعادية من صِرَاعٍ عنيفٍ حَوْلَ نقطتَىْ حرف العلة أو من أجل موافقة الأصوات لِتُهَنِّئوا أنفسكم بانقضاء عهد محاكم التفتيش ! »

لا أعتقدُ زوالَ ذلك العهد ، أجَلْ ، إن الثورة الفرنسية قتَلَت ملاحدتَها بالمِقْصلة بدلاً من أن تُحَرِّقَهم ، وإذا كان الاشتراكيون والماسونُ لا يَعْبُدون قلب مارى ألا كوك المقدسَ فإن لهم قانونَهم الدينىَّ وأحبارَهم وحِرْمَهم ، ونحن ، وإن كنا نجْهَل وسائل الإبادة التى يتخذونها ضِدَّ خصومهم عند النصر ، لا نَشُكُّ فى حدوث تلك الإبادة حين تغَلُّبِهم .

٣ — تطوُّر الآلهة

ليست الآلهةُ خالدةً ، فهى تعانى سُنَنَ الزمن أيضاً ، وهى تزول وتتحول وَفْقَ تطور ما تنشأ عنه من الاحتياجات والمشاعر .

وَيتَوَقَّف مصير الآلهة ، إلى أبعد حَدٍّ ، على درجة ثَبات العقائد التى تفرِضها الكتب الدينية ، وعندما لا تكون هذه العقائدُ كثيرة الثبات تَتَحَوَّل الآلهة من غير أن تزول تماماً ، والمعتقد إذا ما ثَبَت كثيراً عَجَزَ عن التطور فتلاشى بفعل الزمن .

ويتألف من البُدَّهِيَّة فى آسية ومن البروتستانية فى أوربة وأمريكة مثالان للأديان التى تتحول مقداراً فمقداراً ، وعلى العكس من تَيْنِك الدِّيانتين تبْدُو الكاثوليكية والإسلامُ مثالَيْن للأديان التى يَحُول ثبات عقائدِها دون تحوُّلها ، ومن ثَمَّ دون ملاءمتها للأحوال الجديدة .

obeikandi.com

وما اتَّفقَ للبروتستانية من نجاحٍ وما مُنِيَتْ به العَصْرِية من حبوطٍ يُلقِى نُورًا واضحًا على الملاحظة السابقة .

وأَمْرُ البروتستانيةِ بارزٌ جِدًّا ، فهو يدلُّ على أن الدِّيانة التى لا تُقيِّدُها العقائدُ كثيراً تتحوَّل بسهولة ، فبينما تبذُلُ الكاثوليكية ما لا طائل تحته من الجهود لتلائم مَنَاحِيَ الجيل الحديث عَرَفَت البروتستانية كيف تتطور مع هذه المناحى فصدرت عنها دِياناتٌ كثيرةُ الاختلاف مترجحةٌ بين الكاثوليكية بلا بابا وإنكارِ حرية الرأى .

٣ — تطَوُّر النصرانيـة نحو حرية الفـكر فى الكنائس البروتستانية

إن التطور الذى جعل من البروتستانية مذهباً شِبْهَ عقلىٍّ هو نتيجةٌ مفاجئةٌ غيرُ مباشرة للإصلاح الدينىِّ الذى بَشَّرَ به لُوثِرُ فى القرن السادسَ عشرَ .

ولم يكن الإصلاح الدينىُّ حركةً عقلية تَهْدِف إلى تحرير الفـكر البشرىِّ من النِّير الدينىِّ وذلك خلافاً لِما يُرَدَّدُ فى الغالب .

حقًّا يمكن أن يَحِلَّ دينٌ اعتقادىٌّ محلَّ دين آخر كما يُوَفَّق له بعض المصلحين ، ولـكن البحث العقلىَّ لا يلائم ، على الدوام ، المعتقداتِ غيرَ العقلية التى تنتشر بالعَدْوَى النفسية والتلقين والنفوذ وما إلى ذلك من الوسائل حيث تَجِد للعقل نصيباً .

وكانت غاية لُوثِرَ الرَّجْعِيَّةُ هى أن يَحْذِف من علم اللاهوت جميعَ المُؤَثِّرَات العقلية ، فـكان يقول إن من لوازم الإيمان أن يَنْصَرِف عن البحث فى سبب

الأشياء ، فعلى المرء أن يطمع في الإيمان أكثر مما في الفهم وأن يجعل من الإيمان همَّه الوحيد ، ولا شيء أصوبُ من الإيمان ، وكلامُ الله ، كما صيغ في الكتاب المقدس ، يكفي ، والدستورُ الخُلُقِيُّ يقوم على الطاعة ، وبهذا وحده يُبْلَغ ملكوت الله .

وهنالك أسبابٌ معروضة في هذا الكتاب أوجبت سلوك بعض المذاهب البروتستانية سبيلَ حرية الفكر ، بَيْدَ أن مثل هذا التطور لم يَدُرْ في خَلَد لُوثِرَ ولا كالْفِينَ اللذيْن يجب أن يوصفا بالرَّجْعِيَّة ، فقد أرادا العَوْدَةَ إلى تعاليم الكتاب المقدس ، أي إلى الكتاب الذي كان قد بَلَغ من القِدَم خمسةَ عشرَ قرناً .

ولُوثِرُ وكالْفِينُ إذ نَبَذا سلطان الكنيسة اضْطُرَّا إلى ترك المؤمنين يُفَسِّرون الكتاب المقدس كما يشاءون ، فأدى هذا إلى حرية الفكر فيما بعد ، وذلك عند ما قُرِئَت الكتب المقدسة بعيون العلم لا بعيون الإيمان ، والكتابُ المقدس إذ فُسِّر غدا لا يكون موضعَ إيمان ، فهذه نتيجةٌ لم يُبْصِرها لُوثِرُ قطّ ، وذلك لأن مبدأ الإنكار ، عند لُوثِرَ ، تجديفٌ فظيع [1] ، وأما كالْفِينُ فكان يتذرع بضروب العذاب لِخَنْق مثل ذلك الزعم عند صَوْغه .

وكان تطور البروتستانية نحوَ إنكار ألوهية يسوع بطيئاً ، وما كان هذا التطور لِيَعُمَّ ، وعِلَّةُ هذا أن الدِّيانة القديمة اضْطُرَّت عند انحلالها إلى ملاءمة مختلف الأمزجة النفسية ، فطرَحَت مذاهبُ البروتستانية الحرةُ وحدَها مبدأ ألوهية يسوع جانباً ، ويقول البروتستان الأرثوذكس ، على العكس من ذلك ، بألوهية

---

(١) لا يشتمل موجز لوثر في مبادىء الدين ، الذى نشر سنة ١٥٢٠ ، على غير قليل من الأمور المخالفة للكاثوليكية الصحيحة .

يسوع ، فترى الكنيسة الأنغليكانية ، على الخصوص ، محافظةً على كثير من عقائد الكاثوليكية وطقوسها .

ومع تباعد الكاثوليك والپروتستان وتقاربهما تُبْصِرُ اختلافاً بينهما فى عاداتهما الروحية على الخصوص ، فالكاثوليكىُّ يُسَلِّم دفعةً واحدة بقانون الإيمان الذى فرضته الكنيسة ، على حين يذهب البروتستانىُّ إلى تحليل ما يَبْحَث عنه من المعتقد فى تضاعيفِ مُبْهَماتِ الكتاب المقدس ، والكاثوليكىُّ يرى الاعتراف ماحياً لجميع الذنوب على حين يرى البروتستانىُّ عكسَ ذلك ، وهذا إلى أن دين البروتستانىِّ باطنىٌّ فلا يَشْعُر ، خلافاً للكاثوليكىِّ ، بحافز إلى إبدائه بالاحتفالات الفخمة والرموز .

وإذا كان وجها النصرانية ، أى الكاثوليكية والپروتستانية ، يختلفان اختلافاً جَلِيًّا فاملاءمتهما آمالَ شعوبٍ مختلفة ، فلولا الإصلاح الدينىُّ لَتَدَلَّت شعوبُ الشمال إيمانَها القديم من تلقاء نفسها على ما يحتمل ، وذلك مع محافظة شعوب الجنوب عليه ، فالعقائدُ المفروضة تُغْنِي عن التأمل ، والاحتفالاتُ الرائعة تَسْحَر ذوى الإحساس الحىِّ الذين لا يبالون بأعمال العقل إلا قليلاً .

وما قلناه عن الذهنية البروتستانية التى هى وليدةُ احتياجِ المرء إلى تفسير الكتاب المقدس بنفسه يُطَبَّق على الأحرار وصحيحى الإيمان أيضاً ، غير أن الأحرار وحدَهم صاغُوا من الإنكار ما يَدِينُون به من حرية الفكر أو من الاعتقاد بالله مع إنكار الوحى على الأقل .

وتلك الإنكارات ، التى تَصْدُر عن ذوى النفوس النَّيِّرَة كعَمِيدِى كليات اللاهوت والأساتذة الخ ، ذاتُ تَطَرُّفٍ ، ومن ذلك تصريحُ عميد كلية اللاهوت

البروتستانى ببار يس السابق ، مسيو مينيغوز ، بأنه « تخلَّص من جميع الأساطير الكنسيَّة » ، ومما قاله هذا العميد « أنك لا تجد إسرائيليًّا يَعُدّ المسيح تجسُّداً ليَهْوَه » ، ثم قال مستنتجاً : « أعتقد أنه لا أثر لعقيدة تأليه يسوع فى العهد القديم أو العهد الجديد » .

وتفضَّل عميد كلية اللاهوت البروتستانى بباريس الحاضرُ ، مسيو إدوارد فُوشيه ، فأتحفنى بمعارفَ ذاتِ قيمةٍ عن نشوء البروتستانية الحرة .

فاعلَمْ أن الشكَّ فى ألوهية يسوع يَرْجِع إلى أوائل القرن السابعَ عشرَ ، ولكنه لم ينتشر إلا ببطوء ، و بدأت هذه الحركة فى إنكلترة فامتدت منها بالتدريج إلى هولندة وألمانية ، وفى ألمانيــة كانت الغَلَبة للمذهب القديم أو المذهب الحرّ بحسب الأحوال .

ولا يَسْهُل تَبيُّن تطور البروتستانية نحو حرية الفكر من الكتب ، ففى الكتب يُجْتَنَب صَوْغ إنكارات جافية جِدًّا ، ويُعْرَض يسوعُ فى رسائل ذلك المذهب الاعتقادية القديمة رجلاً مُوحًى إليه من الله ، ثم تنساب كتب الدين فى هذا الموضوع فتُبْدِى يسوعَ ابناً لله كجميع النــاس ، ولا ترى غير اللاَّثالُوثيِّين من يُصِرُّون على إنكار ألوهية يسوع .

وتختلف مبادىء مختلف المذاهب البروتستانية باختلاف البلدان فضلا عن ذلك ، وهذه المذاهب كثيرة إلى الغاية ، فتجد ما يزيد على مئتين منها فى أمريكة وحدَها ، ويقوم قسم كبير من تاريخ الكنائس البروتستانية ، منذ سنة ١٧٥٠ ، على حركةٍ تترجَّح الأفكار الحرة فيها بين جذْرٍ ومَدٍّ كما كَتَب إلىّ مسيو فُوشيه ، وهى الآن فى طريق التقدم بالولايات المتحدة و إنكلترة .

وفى فصل سابق بيّنْت ما يعانيه الدين من التحول العميق عند انتقاله من حظيرة علماء اللاهوت ورجال الأدب إلى الطبقات الشعبية ، ومما ذكرتُه أن مُنْكِر الآلهةِ بُدَّهَة (بوذا) لم يَعتم أن صار إلهاً لدى الجماهير ، فمن المستحيل أن نذهب إلى خُلوّ المعتقد الشعبيّ من روح التدين ، وليست البروتستانيةُ الموصوفة بالحرّة إلاّ مذهباً للمُثقّفين على الخصوص ، فأشكّ في نفوذها نفوسَ المؤمنين نفوذاً كبيراً ، حتى إن هؤلاء المؤمنين لم يسمعوا بها في الغالب .

٤ — محاولاتُ تحويل الكاثوليكية المذهبُ العصريّ

للكاثوليكية ، باحتفالاتها وطُقُوسِها ، نفوذٌ في نفوس الشعب أقوى مما للبروتستانية بدرجاتٍ على الدوام ، والكاثوليكيةُ إذ جَمَدَت ، مع الأسف ، بثبات عقائدها فإنها تُعَدُّ من الأديان المحكوم عليها بالزوال البطيء من غير أن تتطور كما ذكرنا سابقاً .

والكاثوليكيةُ ، بعد أن كانت تلائم احتياجاتِ الأمم شِبْهِ المتبربرة في القرون الوسطى ، عادت لا تُناسِب مزاجَ الناسِ النفسيّ في الوقت الحاضر .

حقاً كيف يؤمن الرجلُ الحديث بوجود إلهٍ حَقُود يُحَمِّلُ وِزْر معصية الإنسان الأولِ ذَرَارِيَّ هذا الإنسانِ فيجعلُ ابنَه الخاصّ (يسوعَ) يُكفِّر عن تلك الخطيئة الواهية ؟

وحقاً أن الآلهة التي يُحَرِّكها غضبنا وحبُّنا فتشترك في المعارك ، والتي تُهَدِّد مخلوقاتِها بأفظع العقوبات في عالَم الأبدية ، والتي تَعْطَشُ إلى القرابين والعبادة ، والتي

تغيِّرُ مجرى الأمور وَفق أدعيتنا ، والتى تتدخل فى شؤوننا ، كانت تلائم الأمم فى دور فتوَّتها ، بَيْد أن العلم جعل أمرَها غيرَ محتمل التصديق فلا تأبه النفوسُ العصريّة لها .

وعلى ما نراه من دَعْم التيارات الموروثة المتأصلة لنفوذها نُبْصِرُ قِلَّةَ من يستمع لكلام القسيس مقداراً فمقداراً و نُبْصِر شكَّ القسيس نفسِه فى صحة مايعلِّمه أحياناً ، فأصبحت أساطير الكنائس لا تُوحِى إليه بشىء وأصبحت الرِّيَبُ تساور فكرَه فصار يبحث عن مثلٍ عالٍ آخرَ ليُوجِّهَه .

ومن الكاثوليك الذين أخذ إيمانهم يضطرب مَنْ حاولوا جَعْلَ دينهم يلائم الأزمنة الحديثة بواسطة المذهب العصرىِّ ، ومن المعلوم أن غاية هذا المذهب كانت جعلَ العقائد النصرانية ملائمة للعقل بعدِّها رموزاً فقط ، ونال هذا المذهبُ نجاحاً كبيراً فى البَداءة ، فانضمَّ إليه فريقٌ من القساوسة والطلبة والأساقفة بسرعة، فهنالك رأى حَبْرُ الكنيسة وَقْفَ هذه الحركة فأذاع منشوراً فَرَض فيه على المؤمنين الراغبين فى أن يكونوا من رجال الدين أن يُقْسِموا برَفْض جميع المبادىء الجديدة .

ومن المحتمل أن كان ذلك الحبْر مُحِقًّا فيما صَنَع ، فالمذهبُ العصرىُّ الظافر لا يَنْشَب أن يُضْحِيَ ديناً قريباً من البروتستانية الحُرَّة مناهضاً للإيمان الكاثوليكىِّ .

ولا يُؤدِّى انتحال الكنيسة المذهب العصرىَّ إلى زيادة أتباعها لارَيْب، ولكن المؤمن إذا ما جادل فى عقيدته خَسِرَها شَعَر بذلك أو لم يَشْعُر ، ولا يبالى المؤمن الحقيقىُّ بعُقْم العقائد مادام هذا العُقْم لايدور فى خَلَده ، فالإيمانُ والعقل لايقيمان بمنزل واحد .

٥ — النصرانيـــة من صنع الجموع

هنا نختم بياننا الموجز عن تطور النصرانية الفلسفيّ ، ونحن حين تكلمنا عن مصادر النصرانية وجدنا من غير المفيد أن نبحث ، كغيرنا ، في ظهور مؤسّسها حقًّا ، فسواء أظهر يسوع أم لم يظهر لم نجد أيّ شبه بين النبيّ الجليليّ الخاشع هذا وبين الربّ الأسطوريّ الذى عبده الناس منذ ألفي سنة .

إن يسوع المعبود الذى يتضرع إليه المؤمنون هو من صُنع الجموع ، فقد تطلّب تأليفُ شخصه وتعاليمه من أنقاض الآلهة والمعتقدات السابقة مرورَ عدّة قرون ، وما إلهُ كنائسنا إلا من الآلهة التركيبية ، كمينيرڤا وهِركولَ وڤينوس ، التى تقمّصت فضائلَ الشعوب واحتياجاتِها وآمالَها ، وما جميعُ هذه الآلهة غيرَ تجسّداتِ المبادىء التى هى وليدة مشاعرنا ، وما عبادة أحد الآلهة فى الغالب سوى عبادةِ الإنسان لأخيلته ، ومن ثَمّ لنفسه .

وجميعُ آلهة البشر ظهرت من دوائر اللاشعور فى روح الجموع حيث لا ينفذ العقل ، والآلهة تسيطر على ذهن الناس وتوجّه الحضاراتِ العظيمةَ لذلك ، ولا سلطان للمنطق العقليّ على هذه المعبودات التى لا تفنَى ، أجَلْ ، يشير المنطق العقليُّ علينا بهدم معابد تلك الآلهة فى بعض الأحيان ، ولكن من غير أن يلوح لهذا المنطق وجودُ منطقٍ أعلى منه يُكرِهُنا على إعادة بنائها ذات يوم على ما يحتمل .

obeikandl.com

الفصل السادس

ظهور المعتقدات الجديدة

١ . الأسباب النفسية فى تكوين ديانات جديدة — ٢ . عناصر المعتقدات الجديدة — ٣ . ديانات جديدة نشأت عن تحول معتقدات قديمة — ٤ . ديانات جديدة لم تقتبس غير عناصر قليلة من المعتقدات القديمة — ٥ . المعتقدات السياسية ذات الشكل الدينى — ٦ . محاولات إقامة دين علمى .

١ — الأسبابُ النفسيةُ فى تكوين دِيانات جديدة

بَيَّنَّا أن المعتقداتِ مظهرٌ لمزاجٍ نفسىٍّ ثابت ، ثم أبَنَّا أن هـذا المزاج النفسىَّ يمكن أن يَبْدُوَ على شكلِ معتقداتٍ مختلفةٍ أشدَّ الاختلاف .

والمزاجُ الدينىُّ ، وإن شِئْتَ فَقُلْ الروح الدينية التى هى من أُسُسِه الجوهرية ، إذ كان ثابتاً لا يَمَّحى فإن ممـا لا يُفْتَرض أن يزول عصر المعتقدات الدينية أو أن تزول الظاهرة الدينية .

أَجَلْ ، يظهر أن دَوْر مؤسسى الأديان العامة كَبُدَّهَة (بوذا) ومحمد ، أو دَوْرَ أقوياء المصلحين ، كَلُوثِر وكَالْفين ، قد غاب ، ولـكن ما يظهر فى مختلف البلدان من الأديان الصغيرة على الدوام يَدُلُّ على ثقة البشرية بعون الآلهة فى كلِّ زمان .

obeikandl.com

٣ — عناصر المعتقدات الجديدة

يَتِمُّ تكوين تلك المعتقدات الجديدة وَفْقَ نظام واحد ، وهو أن يَجْمَعَ مُتَهَوِّسٌ حوله رُسُلاً ينشرون تعاليمه بالتلقين والعَدْوَى النفسية .

والمذهبُ بعد أن يكون مترجِّحًا ينقلب إلى عقائدَ من فَوْره ، فهنالك يستند ، كجميع الديانات ، إلى أركان كبيرة ثلاثة وهي : الإيمان والشعائر والرموز .

والمعتقدُ بعد أن يتكوَّن على هذا الوجه فينتشرَ قليلاً ينقسم ، في الغالب ، إلى فِرَقٍ يخسر بها وَحْدَتَه فتحُول دون دوامه ، وهذا الانقسامُ إلى فِرَقٍ يقِفُ اتِّسَاعَ عدد غير قليل من الديانات .

وما بسطناه من المبادئ في فصل سابق يدلُّ على أن مُعْظَم الأديان الجديدة لم يتكوَّن بحذافيره ، بل تألَّف من أنقاضِ معتقداتٍ سابقة ، ومصدرُ هذا هو السبب النفسيُّ البسيطُ القائل إن المعتقداتِ لا تموت بَغْتةً ، فالمعتقدات تتطلَّب ، في بعض الأحيان ، عِدَّةَ أجيال لتزول ، وهي إذا ما زالت تركت آثاراً لا تمَّحي في النفس ، ولا يزال بعض الشعائر والألفاظ والأدعيةِ المأثورةِ تُثِير ، حتى لدى أشدِّ المرتابين ، طائفةً من الآمال والمشاعر المطمورة في دائرة اللاشعور ، والإيمانُ يكون غيرَ متصل حينئذ لا ريب ، ولكنه يستيقظ في الأحوال العظيمة كساعة الموت لدى الأفراد وساعةِ المصائب لدى الأمم ، وذلك كما لُوحِظ ، بما يستوقف النظرَ ، في فرنسة أيام الشِّدَّةِ بعد حرب سنة ١٨٧٠ ، فقد قطع نوابُ ذلك الزمنِ عَهْدًا بإنشاء كتدرائيةٍ عظيمةٍ لِنَيْل العَوْن من السماء ، وأخذ الجمهور يتقاطر إلى الكنائس فيستمع فيها إلى قساوسةٍ قَوِيِّي الإيمان ضعيفي الذكاء يُوصُونَه بالحَجِّ وبالصلوات ويُبَلِّغُونه أن انكساراتِنا هي انتقامٌ إلهيٌّ من الملاحدة ، ولَهْجَةٌ كهذه وإن كانت

تُؤثِّرُ فى جيلٍ آخرَ لا تَصْلُحُ لإثارة شعب فى أيامنا إلا قليلاً فَظَلَّتْ غيرَ ذاتِ نفوذ ، والاشتراكيةُ إذ كانت تلائم احتياجاتٍ أكثرَ عصريةً أمكنها أن تحاول القيامَ مقام الإيمان السابق وأن تؤسس دِيانة من ناحيتها .

٣ — دِياناتٌ جديدةٌ نشأت عن تَحَوُّلِ معتقداتٍ قديمة

ظهر من الملاحظات السابقة أن الدِّيانة لاتقوم من غير استعانة بالعناصر الدينية السابقة ، وسنرى ذلك من البحث فى تكوين مختلف الدِّيانات التى نشأت منذ قرن ، فتاريخُ هذه الدِّيانات المُوجَزُ يُسَوِّغ المبادىء المعروضة آنفاً تسويغاً تامًّا .

وأولُ ما نَدْرُسه فى هذا المطلب هو أمرُ الدِّيانات المُشْتَقَّة من الدِّيانات السابقة كالفِرَق البروتستانية ، ثم نَذْكُرُ الدِّياناتِ التى تبتعد عنها ابتعاداً خاصًّا ، كالمَرْمُونِيَّة والروحانية الخ ، على الرغم مما فيها من الاقتباسات المُهِمَّة .

والفِرَقُ البروتستانية التى تمتلىء بها أمريكة هى من أحسن الأمثلة على ذلك ، لامن حيث انقسامُ الدِّيانة الواحدة فقط ، بل من حيث القوةُ العجيبة التى تتفق للإنسان ، فى بعض الأحيان ، بفعل الحماسة الدينية أيضاً ، فبتلك القوة قامت مُدُنٌ عظيمة فى بِقاع كانت تَسْكُنها قبائلُ وحشيةٌ .

ومن ذلك أن جماعة من البيوريتان فَرُّوا من الاضطهاد فأسَّسُوا ، فى سنة ١٦٢٠ ، تلك المستعمرةَ الوضيعة التى انقلبت ، ذات يوم ، إلى جمهورية الولايات المتحدة الهائلة .

وما كان تَشَدُّد أولئك المهاجرين فى عدم التسامح أقلَّ عَوْناً لهم من إيمانهم

الحار في نيل المقصد ، فهم إذ حظروا ، لعدم تسامحهم ، دخول من ليس من مذهبهم في أرضهم حفظوا وحدة العمل بينهم .

ومن الواضح أن الحماسة الدينية عنصر قوي في العمل ، ولكنها ليست بكافية ، فالإيمان ، وإن كان يُنمِّي خصائل الإنسان ، لا يُحدثها ، وآية ذلك وجود أمم ذات معتقدات حادة لم تقم شيئاً دائماً في بقاع مماثلة .

حقاً لقد جلب أولئك الغزاة البروتستان معهم فضائل عرقهم ، وهي قوة المبادرة الشخصية وحب العمل والثبات القوي والنظام الباطني المتين ، وذلك فضلاً عن الإيمان .

وكان أمر أولئك الرجال المتحمسين ، كما يحدث في مثل تلك الحال على الدوام ، هو أن يجعلوا الدين ، بوجه لا شعوري ، ملائماً للاحتياجات الراهنة ، فعلى ما كان من وضع دستورهم السياسي في السنوات الأولى بما يلائم نصوص الكتاب المقدَّس تجده مُشبعاً من مبدأ الحكم الذاتي ، حتى إن روح الاستقلال تجلَّت في نظام الكنيسة التي لا تديرها أية سلطة عالية فكانت تتألف من مجموعة عبادات ذاتية مستقلة لم تلبث أن تحوَّلت إلى فرق مختلفة مع التسامح التام .

وانتحل المهاجرون الأولون مذهب كالفين في القضاء والقدر ، وهو القائل إن أمر الناس بُتَّ فيه قبل ولادتهم فتقرَّر كونهم من أصحاب الجنة أو من أصحاب النار بحسب مشيئة الخالق ، بيد أن هذه الجبرية الجائرة المؤذية لمشاعر الإنصاف أوجبت ردَّ فعل فرُفضت عقيدة القضاء والقدر ، تقريباً ، منذ الجيل الثالث ، على أنه رُجِّح عدم الجزم في المسائل التي لم يقطع الكتاب المقدس فيها كالعذاب الأبديّ وألوهية يسوع والتثليث .

obeikandi.com

وتزيد الفِرَق البروتستانية على الدوام فتشتمل اليوم على معتقدات متنوعة لم يحتفظ الكثيرُ منها بغير الاسم من النصرانية ، ويَعُدُّ جميعُ تلك الفِرَق طبيعةَ الإيمان غيرَ ذاتِ أهميةٍ مع ذلك ، وذلك مع القول بأن من الضروري أن يكون الإنسان ذا إيمانٍ حتى يَسِيرَ ، ولا مَعْدِل لعلم النفس الحديث عن الموافقة على صحة هذا المبدأ .

ومن بين الفِرَق الجديدة التي قد تتَّصِل بالنصرانية بعضَ الصِّلَة تحتلُّ الفرقةُ المعروفة بالعِلْم النصرانيِّ مكاناً خاصًّا ، لا لِما اتَّفَقَ لها من نجاح باهر فقط ، بل لِما كان من المعارف الثمينة التي حَبَتْ علمَ النفس بها على الخصوص ، ومن الحقِّ أن استوقفتْ نظرَ فريقٍ من الفلاسفة ولاسيما وِيلْيَم جِيمْس .

وبين أتباعِ تلك الفرقة ، الذين يزيد عددهم على مليون نفس ، تُبْصِر طائفةٌ من الأساتذة والكُتَّابِ والمتفننين ، ويُباع من كتابها المقدس خمسُمئة ألف نسخة ، وتحتوى مدارسُها أربعةَ آلاف طالب .

والسيدةُ إدِّى هى مؤسسة تلك الفرقة ، ويَقِيسُها أنصارُها بيسوع ، ويقوم مذهبها على التفاؤل ، فلا تَجِد فيه أثراً لإلهِ اليهود والنصارى الحقودِ ، وهى تَعُدُّ الألمَ وَهْماً ، فالإنسانُ إذ كان على صورة الربِّ وجبَ ألاَّ يألم .

فإذا مَرِض أحدُ أتباع تلك الفرقة جِيءَ بكاهن الدين إليه فيُلْقِى هذا الكاهنُ فى رُوْعه بحماسةٍ أنه ليس مريضاً ، فيكون له بهذا التلقين سُلْوَانٌ فى الغالب ، « فالإيمان يَشْفِى » كما قال الطبيب الشهير شاركو منذ زمن .

قال وِيلْيَم جِيمْس : « العُمْىُ يُبْصِرُون ، والعُرْجُ يَمْشُون ، والبُرْصُ يُطَهَّرُون ،

ولم تكن النتائج في الحقل الخلقي أقل روعة من ذلك ، فما أكثر الذين انتحلوا وضعاً ينمّ على التفاؤل من غير أن تفترض قدرتهم على ذلك في أي وقت .

« ... قالت تلك المؤسسة : سيروا كما لو كنت صاحبة حق تدلكم التجربة في كل يوم على أنكم ضمن دائرة الصواب ، فتشعرون في جسمكم وروحكم بأن القوى التي تسيطر على الطبيعة هي قوى شخصية ، وبأن أفكاركم الشخصية هي قوى حقيقية ، وبأن قوى الكون تلبي دعواتكم وتقضي احتياجاتكم الفردية رأساً .

« ... والدين الجديد يهب الصفاء والاتزان الأدبي والسعادة » .

ونتائج مثل تلك توضح ما اتفق لذلك الطب النفسي من النجاح العظيم ، ويمتاز أتباع تلك الفرقة بسعادة الخلق ، فلا يجزعون حتى من الموت لعدّهم إياه خاتمة حلم .

وإذا عُدّت السعادة غاية الدين وجب الاعتراف بأن ذلك المذهب بلغ غايته تماماً .

وذلك المذهب إذ يقول بقدرة الروح على تحويل ما تتلقاه من الانطباعات الخارجية لم يأت بما يناقض الملاحظة ، وتكون الخدمة التي يُسديها إلى الإنسانية عظيمة إذا ما استطاع أن يقضي على التشاؤم في العالم ، ومن المؤسف أن ذلك المذهب لا يُحدث تفاؤلاً إلا في الطبائع التي أُعدّت له فيجعل فيها من العوامل الجديدة ما تحافظ به عليه .

ونتائج ذلك المعتقد تسوّغ عمل المياه المعجزة والحج وذخائر القديسين

والصلوات وما إلى ذلك من الأمور التي كان العلم يُماري فيها فغدا اليوم يقول بها .

وظاهرات طريفة من الناحية النفسية كتلك مما يدعو إلى التسامح نحو الوعود التي يصوغها بائعو الأوهام ، ومما ذكرته في كتاب آخر تاريخ بائع الخواتيم السحرية الذي كان يزعم ضمانها لنجاح من يحوزونها والذي دانته المحكمة حينما عُرضت قضيته عليها ، وحُقّ للمحكمة أن تدينه من الناحية النظرية ، ولكنه لا ينبغي تعزير الساحر من الناحية العملية ، فهو لم يخدع إنساناً ما قال عدةُ شهودٍ ، بصيغة التوكيد ، إنهم مُلئوا بالسعادة منذ حملوا خواتيمَ سحرية ، ومن هؤلاء خياطة ذكرت زيادة عدد زبنها ، وتاجر ذكر نموّ أعماله بسرعة ، وما هي علة هذه النتائج الطيبة ؟ علتها هي أن الاعتماد على العون السحري للخواتيم يحرك همم حامليها ، والإنسانُ لا ينتفع ، على العموم ، بغير قسم قليل من القوى الكامنة فيه ، والإيمانُ بالعون الخارق للعادة يُلزم بالسير على ما يتم به النجاح .

ويتألف من عمل الإيمان الذي رجعنا إليه غير مرة ناحية من أهم نواحي النفوذ الديني الواضح الذي لا يمكن إنكاره في الوقت الحاضر .

٤ — ديانات جديدة لم تقتبس غير عناصر قليلة من المعتقدات القديمة

تنم الفرق البروتستانية على ما في المذهب الواحد من التغييرات فقط ، والآن نبحث في ديانات لا ترتبط في معتقدات قديمة أو إنها لا ترتبط فيها إلا بروابط ضعيفة جداً .

ونجاحُ الديانات الجديدة ، لا تأسيسها ، هو النادر في التاريخ ، فقد ظهر في فرنسة وحدها بضعة عشر ديناً في قرن واحد ، وإذا ما نظرنا إلى أشهر ما ظهر

obeikandi.com

منها منذ سنة ١٧٨٩ وَجَدْنا فى أول الأمر عبادةَ العقل التى لم يُكْتَب لها سوى فَوْز وَقْتِىّ، ثم وَجدْنا دينَ الكائن الأعلى الذى هو ضَرْبٌ من الإيمان بوجود الإله مع إنكار الوحى والذى ابتدعه رُوبِسْپِير، ثم وَجدنا دينَ سويدِنْبُرغ الذى لا يزال ذا أتباع، ومذهبَ قَالَنْتِن هَاوِى القائلَ بالإيمان بالله من غير عبادة، والسَّانْسِيمُونِيَّةَ للأب أنْفَانْتِن، وعبادةَ الإنسانية لأُوغُوسْت كونت، والروحانيةَ، والشيطانيةَ الخ، وما كانت البقاع الأخرى أقلَّ من ذلك خِصْباً.

والمَرْمُونِيَّةُ من أشهر الأديان الحديثة التى ظهرت فى أمريكة، ولا تزال المَرْمُونِيَّة دليلاً على القوة التى يَمُنُّ بها الإيمان المتين على الإنسان، ولو كان هذا الإيمان مخالفاً للصواب، وتُؤَيِّدُ المَرْمُونِيَّة قولَنا إن الدِّيانة تُحَرِّك الصِّفَاتِ الكامنةَ فى الإنسان من غير أن تُحْدِثها، وفى هذا سِرُّ ما نراه من إحداث المعتقد الواحد مختلفَ النتائج باختلاف الشعوب التى تنتحله.

وذلك المعتقدُ مهما كان بُطْلُه لم يكن غير ذى تأثير عملىّ فى الشعب النشيط الذى لا يرى فى الحياة غيرَ وجهها النَّفْعِىِّ، والمَرْمُونِيَّةُ من أسطع الأدلة على ذلك.

ومؤسسُ المَرْمُونِيَّة متهوسٌ صاحبُ لكتاب مُقَدَّس مُشْبَعٌ من عِدَّةِ ذِكْرَيَاتٍ نصرانية، ولم يُعَتِّم أن صار لهذا الدين الجديد عِدَّةُ أنصار، وكاد هذا الدين ينهار من فَوْره لو لم يَجِد له زعيماً من أولئك الزعماء العظام الذين يُقَاسون بالقديس بولس فلا يُكْتَب لأىِّ إيمان نجاحٌ بغيرهم.

واسمُ ذلك القِدِّيس بولس الجديدِ الغَاوِى النشيط هو جوزيف سميث، ولم يَلْبَث هذا الرجل أن جَمَعَ عِدَّةَ مئاتٍ من الأتباع.

ومن دواعى الأسف أن قال مذهب المَرْمُونِ بمبدأ تعدد الزوجات الذى يَعُدُّه

بيوريتانُ أمريكة من الفضائح ، فأهرعت كتائبُ لإبادة الخوارج ، فنجا جوزيف سميث وتلاميذه فى أوهيو حيث أسسوا ثلاثمئة مزرعة كتب لها الفلاح بسرعة ، وحمل البيوريتانُ الغضابُ بعضَ الجنود على حرق تلك المزارع ، فجرد أولئك المؤمنون ، بذلك ، من كل ما يملكون فهاجروا إلى شواطىء إلينوا فسيقت إليهم كتائب لقتلهم ، فهنالك هاجروا بقيادة نبيهم إلى الغرب فبلغوا شواطىء « البُحَيْرَةِ المالحة » فى سنة ١٨٤٤ بعد أن جابوا أكثر من خمسمئة فرسخ ، بلغوا تلك البُقْعَةَ الجديبة الكئيبة التى لا يدور فى خَلَد عدوٍ أن يطاردهم فيها .

وما كان يَلُوح إمكان أيِّ استعمار هنالك ، ولكن المَرْمُون تغلَّبُوا ، بفضل حرارة إيمانهم ، على جميع ما كان يظهر تعذُّر اقتحامه من العوائق ، فحوَّلوا فى خمسين سنة تلك البُقْعَةَ الجديبة إلى بقعة خصيبة مكسُوَّة بالمدن والمبانى والمعامل ومختلف الصِّناعات ، و بلغ عدد المَرْمُون من الكثرة ما أوجب العدول عن اضطهادهم ، والمرمونُ مَدِينُون بهذه الكثرة السريعة لانتحالهم مبدأ تعدد الزوجات ، وغيرُ قليلٍ عددُ رجال المرمون الذين يتزوج الواحدُ منهم ثمانىَ نِسْوَةٍ أو عشرَ نسوةٍ (١) فيكون له ثمانيةَ عشرَ ولداً ، والمرمونُ ، لِما ينالونه من الثَّراء بِكَدِّهم ، يَسْهُل عليهم إعالةُ عِيالِهم .

---

(١) سأل مسيو هوره امرأة مرمونية عن رأيها فى مبدأ تعدد الزوجات فأجابته بقولها : « إنى أفضل أن أكون الزوجة العاشرة لرجل عال على أن أكون الزوجة الوحيدة لرجل متوسط الحال » ، ثم أضافت إلى ذلك قولها إن نسوة ذوى الزوجات الكثيرات أسعد حالا من الأخريات .

واستعدادُ المَرْمُونِ للدعوة الدينية تامٍ نُمُوَّ استعدادهم الصِّناعي ، ومن ذلك أن حَبْرهم الأخيرَ الذي هو أبٌ لاثنين وأربعين ولداً ومديرٌ لمَصْرف كبير أرْسَل ١٢٠٠ مُبَشِّرٍ إلى أنحاء العالم ، وقد يستطيع هؤلاء المُبَشِّرون أن ينشروا المَرْمُونِيَّة ، ولكنهم لن يقدروا على مَنْح أتباعِها الجُدُدِ صِفاتِ العِرْق الخُلُقية التي أوجبت نجاحَها في أمريكة ، ومما أراه أن حَبْر المرمون يكون على شيء من الوَهْم إذا ما طَمِع في انتحال الكَوْن لمَذْهبه .

وبجانب الدِّيانات المذكورة آنفاً يمكننا أن نَعُدَّ الدِّيانات التي ظهرت في الشرق منذ قَرْن كالبَابِيَّة والبَهَائِيَّة في فارس ، وعن البَابِيَّة تَكَلَّمْت في كتاب سابق بسبب ما أدت إليه من الشُّهَداء .

وأما البَهَائِيَّة فتنتحل وَضْعَ الدِّيانة العامة من غير أن تَهْدِف إلى إلغاء الدِّيانات الأخرى عادَّةً إياها تفاسيرَ مختلفةً لحقيقة واحدة .

قال أحد أتباع البَهَائِيَّة : « تُبَيِّن البَهَائِيَّة من خِلال مختلف العقائد والرموز كيف أن الأديان نتيجةٌ لجهودِ مختلفِ الأمم في سبيل حلٍّ مسئلة المجهول العظيمة وأن مؤسسيها رُسُلٌ لإله واحد ، فيُبَلِّغون الناسَ تعليماً واحداً ملائماً لمقتضيات الزمن فقط » .

وتَنِمُّ تلك المبادىء على شيء من التعقل فلا يُكْتَب لها كبيرُ نجاحٍ على ما أرى ، فالأممُ لا تَعْبُد سوى آلهة شخصية على الدوام ، وأما الآلهة غير الشخصية فهي مُجَرَّدَاتٌ من قبيل الطبيعة عند العالِم والجمالِ عند المُتَفَنِّن والعلةِ الأولى

عند الفيلسوف والعدلِ عند السياسىّ ، فهذه الأمور لا تُعبَد وإن كان يُستَشهَد بها وتُحتَرم .

ويمكن أن تُعَدَّ أخيلة الاتصاليين والروحانيين من المعتقدات الجديدة مع بُعدها من الدِّيانات المذكورة آنفاً وعدمِ وجودِ قرابة بينهما .

والروحانيـةُ ، إذ كانت غايتُها مناجاةَ أرواح الموتَى وأرواحِ العالَم الآخر ، وذلك بواسطة الموائد الدَّوَّارة والوُسطاء ، يَتَأَلَّف منها ضَرْبٌ من العبادة ذاتِ عِدَّة ملايين من الأتباع فى الزمن الحاضر .

وبجانب الروحانية نذكر جميع المعتقدات التى هى من نوعها كالسحر والاتِّصالية الخ ، فهذه المعتقداتُ مُبْهَمَةٌ مذبذبة إلى الغاية ، وليس من المفيد أن أُكَرِّر هنا نتائجَ البحث التى خَصَّصْتها لها فى كتابى « الآراء والمعتقدات » ، ونحن إذا ما تكلمنا عنها الآن فلِنُثْبِت عدم فَنَاء النفسية الدينية .

ويَدُلُّ إيمان كثير من أفاضل العلماء بالمعتقدات الروحانيـة على درجة تَعَذُّر الاستغناء عن الدين وعلى ارتضاء فطاحل العلماء بالبراهين الضعيفة حينما يَدْخُل هؤلاء دائرةَ المعتقد .

٥ — المعتقداتُ السياسية ذاتُ الشكلِ الدينىِّ

تَنَاوُل النفسية الدينيـة لمختلف الموضوعات ، كالأبطال والمذاهب والصِّيَغ ، لا يَتَضَمَّنُ اعتقاد الألوهية بحكم الضرورة ، فمن الممكن أن يكون المرء زِنْدِيقاً وأن

يَظَلُّ مُشْبَعاً من الروح الدينية مع ذلك ، وما كانت الأحزاب السياسية والثورات لتَفُوز بالبراهين العقلية ، بل بالمشاعر ذات الطبيعة الدينية ، وتُعَدُّ الثورة الفرنسية أسطعَ مثالٍ على ذلك ، وعلى إثبات ذلك وَقَفْتُ كتابى السابق .

وتَجِدُ روسيةَ حافلةً بالمذاهب التى لا يَعْبُدُ أتباعُها آلهةً كمذهب العَدَمِيِّين مثلاً ، وتَجِد أولئك الأتباعَ مستعدين للموت فى سبيل انتصار إيمانهم .

ويمكن اتخاذ الاشتراكية مثالاً لدَعْم دعوانا تلك ، فما ذكرته منذ زمن طويل فى كتابى « روح الاشتراكية » أن الاشتراكية دين فى دور التكوين قريبٌ من النصرانية فى أوائلها ، ومن المؤسف أن تكون الاشتراكية ، كبعض المعتقدات ، شُؤماً على الأمم التى تنتحلها كعبادة مُولَك .

٦ — محاولاتُ إقامة دينٍ علميٍّ

حَبِطَت فى كلِّ زمن جميع الجهود التى بُذِلَت لإقامة دين على العِلْم ، والحقُّ أن تلك الجهودَ نادرةٌ ، ولا تَجِد مذهباً يستوقف النظر غيرَ مذهب أُوغُوسْت كُونْت ، فهذا المذهب ، الذى يُنْسَى الآن ، قد اقتصر ، بالحقيقة ، على تغيير أسماء العقائد الكاثوليكية ، وما قال به من الثالوث الجديد (أى البَشَرِيَّة التى هى الكائنُ الأعظم والأرضُ التى هى الوَثَنُ الأعظم والفضاء الذى هو الوَسَطُ الأعظم) وَجَب أن يقوم مقام الثالوث النصرانىِّ ، كما وجب أن يَحِلَّ إكليروسٌ جديدٌ مُؤلف من العلماء محلَّ الإكليروس القديم ، ومن المحتمل

ألاَّ تُكرَّر تجربةٌ كهذه أبداً ، مع ما نراه من اكتساب العِلْم شكلاً دينيًّا في بعض النفوس .

حقًّا أن من الوَهْم أن يُفْتَرَض قيام الحقائق العلمية ، ذاتِ المصدر العقليِّ الذي يستلزم بقاءها غيرَ شخصية ، مقامَ المبادىء اللاهوتية والخُلُقية الملائمة لمزاجنا الدينيِّ والعاطفيِّ والتي هي شخصية على الدوام .

وتُعارِض تلك الأسبابُ العميقة استنادَ الدين إلى العِلم ، ويدلُّ كلُّ ذهاب إلى استناد الإيمان إلى العِلم على جهل تامّ لجهاز المعتقد ، فالدِّيانة العلمية أمرٌ مستحيل كالأخلاق العلمية ، والعِلم والدين أمران لا يجتمعان .